المكتبة الأكاديمية
شركة مساهمة مصرية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001
UKAS
QUALITY
MANAGEMENT

ثلاثـــة رجـــال

فالتر جروند

ثلاثـــة رجـــال

رواية قصيرة

ترجمـــها عن الألمانيـــــة

د. طارق عبد الباري

الناشر

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠١٠

* تمت ترجمة هذا الكتاب بدعم من المنتدي الثقافي النمساوي

بالقاهرة

austrian cultural forum[cai]

البيانات الأصلية للكتاب:

Walter Grond, Drei Männer. Novelle
Haymon Verlag, Innsbruck-Wien 2004
ISBN: 3-85218-456-8

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر .

المكتبة الاكاديمية
شركة مساهمة مصرية
رأس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصرى
١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة
القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفون : ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)
فاكس : ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

مقدمة الترجمة

انتقالات سريعة حادة ومشاهد قصيرة متلاحقة، على عمقها وكثافتها. غوص نافذ لأعماق إنسانية دقيقة وتفاصيل صغيرة لا يتصور المرء أن هناك من يخرجها للنور. لغة سردية، شعرية أحياناً، وصور على بساطتها مدمجة. بداية كل جملة تصنع فاصلاً يعزلها عما قبلها ويصلها به في نفس الوقت. هذه هي المعضلة، كالماضي والحاضر. إننا أمام مرآة تاريخية قديمة شديدة الجمال دقيقة الصنع، لا تخلو من غرابة وقسوة، تعنى بتفاصيل الماضي وتبعث شخوصه أحياءً، ترى وجهك فيها، ولكنك تحتاج مدة من الزمن وصدقاً مع النفس حتى تتعرف عليه، لكن كن متأكداً من أنك ستراه حتماً وستعرفه.

هنا تتلاقى الفلسفة الكونية مع الحياة اليومية للأفراد، والحضارات والثقافات، تتصادم وتتعانق، تغذيها الدراسة التاريخية المدققة والسيرة الذاتية والرومانسية، الكل يتحد في كلمات وسطور ولغة واحدة، لم أكتف بأن أنقل المضمون، ولكنني حاولت أن أنقل الشكل كذلك وروح هذا الأسلوب الفريد، على صعوبته.

وحين نتساءل كيف استطاع رجل غربي أن يسبر أعماق الشرق إلى هذه الدرجة، ويواجه الغرب بهذه الجرأة وبهذه الصراحة، فأنت تقرأ لفالتر جروند، هذا الأديب النمساوي المتفرد. تحيه لهذه الرواية التي أشجتني وأسعدتني: "ثلاثة رجال".

د. طارق عبد الباري

المحتوى

إسماعيل

11

الروائي

43

فيليب ج.

75

الرغبة والمعرفة والشعور ملفوفة معًا ككرة خيط؛ ولا يلاحظ المرء ذلك إلا عندما يفقد نهاية الخيط؛ ولكن من يدرى؛ ربما كان بمقدور المرء أن يسير خلال هذا العالم على نحو آخر غير الاسترشاد بخيط الحقيقة؟

روبرت موزيل، رواية ثلاث نساء

إسماعيل

كان ظل الخديوي والأنيس الطيب لجاويدان هانم أسمر البشرة، وخادمًا لدى الخديوي. ذكريات إسماعيل عن طفولته ذكريات غائمة. يقال إنه ابن راعي غنم، من الجبال، من إحدى الواحات هناك. كان يقول لنفسه إن بتره من شجرة أصوله ربما يعنى أولاً وقبل أى شيء آخر أنه صار إنساناً بلا ماضٍ.

كانت سيدته لا تتكلم عن حياتها السابقة. أصبحت مسلمة حبًا في الخديوي، وعاشت في الحرملك باختيارها وكامل إرادتها. لم يزعجها أن أطلق عليها الخديوي اسم جاويدان هانم. لم تكن تمانع في إضاعة الأسماء من أجل السعادة القصوى التي منت نفسها بها؛ كانت تتحدث عن حياة أسطورية، ولكن أيضًا عن ألم مكنون يفوق كل ما يمكن تصوره.

عندما كانت تجلس للعزف على البيانو الكبير "البيكشتاين" الأسود الذي نقل من فيينا إلى القاهرة كان إسماعيل يقف أمام بابها لحراستها. كان يعلم أنها تفكر فيه باستمرار. تكتفي بأن تناديه بالخديوي. كانت تتطلع إلى أشجار البرتقال في الحديقة عبر الشبابيك ذات القضبان، وإلى الكراسي المصنوعة من جريد النخل هناك عند بيوت النحل حيث يحلو أن تمزح مع

الخديوي في المساء، وإلى الممرين اللذين ينقسم إليهما الطريق خلف النافورة مباشرة. كان كل شيء يعني بالنسبة لها شيئًا ما في حياتها معه.

كانت قد التقت هذا الملك الشرقي في فيينا، وحين نظرت في عينيه رأت شيئًا فاتنًا للغاية حتى أن الزهور التي أعطاها لها أحد المعجبين سقطت من بين يديها. بدا لها أن شيئاً لم ينقص؛ ففي حكاياتها كانت لا تزال تعيش تلك اللحظة عندما ابتسم الخديوي ولمس طرف فستانها، ثم همس لها قائلاً أن الورود في مصر أجمل، ودعاها إلى القاهرة. رأت نفسها في عينيه أميرة تتألق وتتمدد على الديوان وتصب على نفسها في الحمام ماءً معطرًا؛ أمة تتعرى أمام قضاتها؛ راقصة بلدية بدوية تتزين؛ رأت "سالومي" تلك الفتاة الخطرة التي أبدعها الترف ووضعتها الرفاهية.

علي الرغم من أن الخديوي كان لا يزال وقتها ولياً للعهد، إلا أن فيينا كانت ترى فيه في ذلك الوقت، مع نهاية القرن ومشارف قرن جديد، رجلا أسطوريًا. كان قد تربى في أكاديمية التريزيانيوم تربية كاثوليكية وأهدى إلى المدرسة مومياتين فرعونيتين، وكان يسكن مع شيخه، الذي اصطحبه معه كي لا ينسى القرآن، في جناح خاص. وقد عضد ذلك شغفه الشديد بالقاطرات البخارية وجمعيات التوفير والخيل والكلاب، وكانت سمعة الخديوي بأنه شخص معاصر لزمنه بشكل غير عادي قد تبعته إلى هناك.

اتبعت دعوته بلا تردد وعكفت حينها على مدى اثني عشر عامًا على وصف الخديوي لكل ضيف أوروبي بأنه شخص مسلم ذو فكر حديث تتحاور معه بالفرنسية. كانت تتحدث عن اليخوت الخاصة والسيارات التي هي رهن إشارتها. كانت تؤكد أن بإمكانها عزف الموسيقى وقراءة الكتب في حجراتها الخاصة. وأنها تعمل على الحفاظ على قواعد الزواج الشرقي أمام الناس فقط. صحيح أنها كانت تذكر فترات إقاماتها الصيفية في القسطنطينية، في قصر أم الخديوي، التي غادرت القاهرة من أجلها، إلا أنها كانت تتكتم أنه كان مسموحاً لها أن تسافر إلى أوروبا سرًا لزيارة مدنها الكبيرة ومنتجعاتها ليس إلا، وكانت تتكتم أنها لم تكن تستطيع أن تظهر بجانب الخديوي على الملأ إلا بالحيلة. ثم أنها أخيراً لم تنطق ببنت شفة حول تعدد الزوجات، والرجال المخصيين والعبيد ولا عن استبداد الحرملك، وكلها أمور لم يكن قد عفا عنها الزمن إلا في عيون الأوروبيين فقط.

في نفس الوقت كان هو، إسماعيل، وليس الخديوي، مَن يقضي الأيام معها. كان إسماعيل قد تربى، بعد أن أُخصي، ليكون نسخة طبق الأصل من سيده الخديوي. وقد تعلم في مدرسة الوصّاف ليقلد صوته واختياره لألفاظه وما كان يستهويه وما كان يعرض عنه. كان يلبس بزات مبطنة بالحرير وأحذية لمّاعة تماماً كالخديوي، وكان يزين رأسه

طربوش أحمر كذلك. كان حصانه ذا لون أبيض، وكان له شارب مثل شارب الخديوي.

كان إسماعيل هو من يحضر من الصحراء البلسم الذي يلين أصابع جاويدان هانم؛ وكان يصحبها في جولات تسوقها، يساوم ويحاسب التجار؛ يطلب تذاكر السفر وينظم نقل الأمتعة، يهدئ زوجات الخديوي اللاتي كن ينهرن وهن يولولن عندما تغادر جاويدان هانم الحرملك لساعات. كانت غرف الحرملك تقع بعيدًا عن قصر الخديوي. إسماعيل فقط هو من كان يسكن كلا العالمين. كانت جاويدان هانم ترغب في اكتشاف طاقة خاصة في الخصيان، وكانت تذكر الغزاة وقادة الحروب منهم، ولم تكن تمل من الحديث عن أولئك الخصيان الذين كانوا يسعدون الأميرات ويثرن نشوتهن، بل لديهم حريمهم الخاص.

على الرغم من أن جاويدان هانم لم تكن سيدة حرملك تقليدية إلا أنها كانت تحرص بشدة على أن تبدو واحدة منهن على أكمل وجه؛ تنتف حواجبها بمهارة لتصبح خطوطًا رفيعة وتشكلها لتصبح زينة تُظْهِر أعينها، وتزين رموشها لتجعل بؤبؤي عينيها يبدوان أكبر. بدون حجاب يبدو وجهها الطويل صغيرًا وصبيانيًا للغاية، الأنف المستقيم والغمازة في زاوية الفم؛ الفم الجميل المتناسق، والأذن ذات الشحمة المكتنزة. كانت بشرتها ذات مسحة سمراء ولكنها شاحبة.

غالبًا ما كانت تنتقي كلامها، وعندما يكون مزاجها هادئًا كانت تتكلم بلثغة بسيطة، وعندما يكون سيئًا يصبح صوتها عميقًا

وعالياً. أما عند الغضب فكانت تعود إلى لكنة فيينا ويصبح صوتها كالمعتاد. كانت تدخن بلا انقطاع تقريبًا، وتعتقد أن الدخان تربطه صلة قرابة بالحجاب النسائي. وعندما كانت تريد أن تقر هادئة في نفسها كانت تشعل سيجارة، وتحاول أن تستعيد خواطرها مرة أخرى هناك حيث كانت مع آخر سيجارة لها.

كانت تلقي خطباً عن الفراغ الذي تحس به بالقرب من غير المدخنين. وعلى الرغم من أن مذاق القبلة دون طعم الدخان لا يعجبها إلا أنها كانت تقبل الخديوي الذي لم يكن يدخن بولع بالغ. ولم يكن هناك ما يربك إسماعيل ويحيره أكثر من هذا سوى علاقتها بالألم. حيث إنها عندما تتألم كانت تعطي انطباعاً للآخرين بأن كل ما بداخلها يتوق للمتعة. أحيانًا كانت تنزع نزوعًا إلى العقوبة وتستمتع بالألم الذي تسببه للآخرين. كانت تجعل قميص نومها الحريري يسقط عنها والباب مفتوحاً، وعندما يضربها الخديوي على وجهها بعد ذلك، لأنها كانت تظهر نفسها بشكل يغري الآخرين، كانت ترمق إسماعيل بنظرة يملؤها النصر. فإذا ما شعرت بالرضا استشعر شوقها إلى المزيد. ذلك الظمأ الذي لا يطفئه شيء، ظمأ لكل شيء.

كانت لديها وجوه عديدة، كما لو كانت مخلوقاً صنعته كتبها المتكدسة أكواماً على الأرض، غير مكترثة بشيء تقريبًا. الأمزجة التي تعتريها تقلق إسماعيل: المعاناة اللذيذة، أمزجة

اليأس اللذيذة، القسوة اللذيذة. تتكلم عن مائة عضو ينمو فيها يعانقون تارة رجلا بحنان ثم لا يلبثون أن يصعقوه فجأة في سرعة البرق الخاطف صعقة حربية. لو أنها أفرغت أمانيها يوماً لملأت بها كتاباً. إلا أن الخديوي لم يكن يقرأ كتبًا، وكان كثيرًا ما يقول لها ساخراً عندما يراها: أوِ منك ومن كتبك! لم يكن يناقش ولم يكن يكتب. كان يخطط ويعاين مواقع بنائه، كان يمكنه الاحتفاظ بالماء في يده دون أن تسقط قطرة واحدة من بين أصابعه حتى ولو كان هناك ثقب في يده. كان فلاحًا، لم يكن رجل قصور، ولكنه سمح لتلك المخلوقة الإفرنجية بتلك العادات الغريبة من الاستمتاع بالكتب وتلاوة الشعر ومن التفزير والتكهن مع عالم ألماني حول التاريخ المصري.

وإبان ذلك استيقظ ذات يوم على خبر نقل الخيول والحمير والماكينات والسيارات بكثرة إلى ضفاف النيل. كان رجل أعمال، لكنه كان يفتقد الحس للمطبخ وفن الطهي الجيد والأسرَّة الحانية. يقطع بفحله الأبيض الحقول التي تبدو بلا نهاية. مساحات كبيرة من الأراضي تقع ضمن ممتلكاته. يجعل من الأرض ذات الرمال الناعمة الطيِّارة أرضًا خصبة، وكان يبني المرافئ والجسور ويزرع غابات الصنوبر وينشئ محطات الكهرباء والصيدليات.

وإذا اشترت جاويدان هانم في أثناء رحلاتها زهورًا كان الخديوي يهز رأسه غير متفهم لذلك. فالزهور تذبل. لكن عندما كانت بائعة القبعات في باريس تستقبله بزهرة ليعلقها على صدره، فلم يكن يرفض حينئذ القبعات الخمس التي

ابتاعتها له جاويدان هانم لفترة الإقامة القصيرة في أوروبا. لم تكن المبالغ الكبيرة تفزعه ، وكانت التفاصيل تهدئه. لذلك كان الموردون يحرصون دائمًا على أن يقدموا إلى الخديوي الفواتير بمبالغ تقريبية.

منذ أن وعى على الدنيا وهو في خدمة الخديوي، ومنذ اثني عشر عامًا في خدمة مخلوقته الإفرنجية، أحس لأول مرة بشيء من قبيل التمرد. الحريم يعني الطاعة، المعاناة، التخلي والخضوع، وفوق كل شيء يسود الخوف. الخوف كان يحدد القانون كذلك. ما من أحد من هذا العالم كان ليجرؤ على جلب عاهة لإسماعيل في جسده. فتخصية الغلمان كانت محرمة بشدة على المسلمين، بينما كان بعض اليهود والأقباط يقبلون على هذا العمل من أجل المال.

كان الخديوي فقط هو المسموح له بكل شيء، لكن هذا لم يريحه من شعوره هو أيضًا بالخوف. كان يركب الحنطور متخفياً ويسير في المدينة، لكي يراقب رعيته، من خلال الشبابيك ذات القضبان. كان يقوم بذلك لشعوره بالقلق، ولكن أيضًا لتقواه وخوفه على الرعية. ولكن كذلك لخوفه الأكبر من المكائد الفوق بشرية، حيث إن المكائد البشرية كانت تقلقه فقط في الأشياء البسيطة، وفي الغسيل أيضًا. فقد كان يطلق إنذار الخطر عندما كان رجال المكواة يكوون الغسيل أبطأ من اللازم. كان يحرص على معرفة كل كبيرة وصغيرة تحدث حتى لو استخدموا في الحرملك خيطاً جديداً، فإنه يحرص

على أن يحاط به علماً. كان يحدد أي سيارة تقله، وفي أى ساعة تنطلق.

صحيح أن جاويدان هانم كانت تحمي نفسها من النظرات الحاسدة بعقد به خرزات زرقاء على طرف السرير، لكنها جاءت من عالم مختلف لا يداوون فيه طفلاً مريضًا بالتيفود بكتابتهم آيات من سور القرآن على قطعة ورق ووضعها في كوب ماء وجعل الطفل يشرب الماء الممزوج بحبر الكتابة، في عالم لا تخيط فيه امرأة عظمة حيوان في وسادة رأس زوجها لكي تخرج حب امرأة منافسة من قلبه. مع هذه المرأة الغريبة كان إسماعيل ينتقل من حياة إلى حياة أخرى، وكل حياة منها لا تنسجم مع الأخرى.

كانت فترة الإقامة الصيفية في القسطنطينية. وكانت أم الخديوي تعيش في مدينة السلطان، وتأخذ مكانها في الحرملك عندما اتخذ الخديوي المرأة الإفرنجية زوجة له. كان يطلق عليها أم الخيِّرين. بالقرب منها كانت جاويدان هانم تقضي أسعد ساعات حبها مع الخديوي. هو أيضًا كانت قسمات وجهه رقيقة، وهنا بدأت الحياة اتخاذ مجرى جديد غير واضح. قامت جاويدان هانم بكل شيء لاستذلال أم الخديوي وكسر شوكتها. ذات مرة قال سلطان القسطنطينية، هذا القائد الإسلامي الأعلى، أن على المسلمات ألا يقلدوا عادات الإفرنجة. ووافقت أم الخديوي على ذلك متفهمة، وعندما كان على ابنها السفر بالقطار الشرقي السريع إلى باريس رجت الأم جاويدان هانم أن تبقى في القسطنطينية، لكنها عبرت

بقاربها البخاري مضيق البوسفور، مارةً بسفن سواحل السلطان التي لم تتمكن من إيقافها لأنها كانت تحمل راية الخديوي. خلف مصاريع الأبواب كانت تضع حجابها، وفي محطة القطار تظهر امرأة إفرنجية بحذاء ذي كعب عالٍ على الموضة وفستان ملتصق بجسدها.

في أوروبا كانت جاويدان هانم لا تهدأ ولديها الكثير من الأشغال؛ تتحدث مع المهندسين المعماريين حول إعادة تشكيل القاهرة، وكانت تسلم نفسها في سويسرا إلى العديد من المؤسسات المتخصصة في الرعاية الصحية والأنظمة العلاجية وتهتم بحماسة شديدة بالسياسة الدولية. كان الخديوي يزور المهرجانات والمعارض، وتجذبه الزلاقات وطرق الترام والقطارات المعلقة. في منتزه براتر في فيينا لم يكن يكتفي بالركوب على ظهر أرجوحة الخنزير، وجرب نفسه كسائق قاطرة من دوفر إلى لندن، وأتى يومها مليئًا بالسخام إلى الفندق.

عندما عادا إلى القاهرة رسمت جاويدان هانم تصميمات لشوارع عريضة مشجرة وقصور جديدة، وجعلت المقطورة الأولى التي خرجت في الصحراء تتزين بأكاليل الزهور، وأعدت مع البدو مهرجاناً فخماً وأمرت بنثر الكثير من زجاجات العطر التي تحمل بطاقتها صورة الخديوي على أرض الصحراء حتى كادت تغطيها، وقدمت لسيدات البدو غير المتحجبات صابوناً محفوراً عليه اسمها. وفي النهاية اقنعت الخديوي بالقيام برحلة استمتاع ترفيهية في الكثبان.

امتطى حراسهما ستين جملاً، والحاشية الأساسية مائتين وعشرين حصانًا، بالإضافة لذلك كانت هناك سبع سيارات تمحو أثرهما من فوق الرمال. وكانت قد أمرت بجر حاوية مياه حديدية من القاهرة معهم، علاوة على قطيع من الغنم والعجول، وكانت تأكل مع الخديوي على موائد ذات أغطية من كتان أبيض وأدوات طعام فضية.

نعم، كان الخديوي يقوم معها ببعض المخافات. قصره به مئات الحجرات والممرات والأفنية التي تحبها جاويدان هانم لأنها بلا حصر. كانت هي الوحيدة من بين نسائه التي يمكنها مغادرة الحرملك والتجول معه عبر قصر عابدين. وعندما كان آخر ضيوفه يغادر القصر كان يجري معها بسرعة شديدة عبر السلم صاعدًا إلى الجناح الخاص بحجراته، لدرجة أن خادمه الإنجليزي لم يكن يستطيع ملاحقته. في تمام الساعة الثانية عشرة كان يتناول معها الغذاء على منضدة صغيرة مغطاة وقابلة للانطواء. ليس هناك من كان يستطيع أن يقشر البرتقال بنفس الطريقة الجميلة التي يقشر بها الخديوي البرتقال. أثناء الطعام كان يناقش معها حملات الدعم للفقراء. كانت ذاكرته تحتفظ بكل التفاصيل الدقيقة، وكانت تضع ذلك في اعتبارها.

كانت تسرح بخيالها حالمة بوجه الخديوي الجميل، في عينيه الكبيرتين الزرقاوتين المائلتين إلى اللون الرمادي وفي فمه الطفولي البديع. بعد الأكل كانا يلعبان الغميضة مع الكلاب،

وكانا يجريان ويطاردان بعضهما البعض عبر الصالات، ويحتسيان القهوة بلا قواعد أو قيود، ويلفظان بذور الكريز من النافذة. بعد الظهر يستمتعان بالمثلجات التركية بالقشدة المحلاة بالسكر. وعندما كان الخديوي يستقبل في الصالون بعض المتسولين كانت تنتظره في غرفة المكتب المجاورة حيث يمكنها رؤية الناس الذين كدهم السعي ليظفروا بشيء من إحسانه عبر الستائر الحريرية الخضراء.

كان على المكتب حصان من البرونز. وعندما تطرق به على المكتب كان يفهم إشارتها. كانت لا تطيق التنفس إذا مضت ساعة ولم يلمسها فيها. وعندما يلقي إليها نظراته متسائلاً عما إذا كان يقضي حكمًا جائرًا أم لا؟ كانت تشير إليه بإبهامها إلى أعلى أو إلى أسفل حسب مزاجها لكي تستطيع في النهاية أن تعانقه، دون أن تهتم بالمصائر التي تلحق بمن يقضي عليهم بمثل هذه الأحكام بسبب إشارتها هذه.

بعد أسابيع مليئة بالحب استمر الخديوي في شنه الحرب على المستنقعات كالمعتاد، وضم أراض جديدة لحقول قطنه. المحاريث البخارية الثقيلة كانت تمر ذهابًا وإيابًا على النيل، سيارات نقل، ماكينات، بينما كانت جاويدان هانم تلعب البيانو في حجراتها، في هذا المكان الذي تتعلم فيه الدجاجات القوقأة، في هذا المكان الذي تختن فيه الإناث وتخصى فيه الحيوانات والخدم، في هذا المكان الذي يستطيع المرء فيه أن يبتاع لنفسه إنساناً أو يستسلم فيه للآخرين.

لم تعترض جاويدان هانم أبدًا على الإتيكيت الذي كانت تحتل زوجات الخديوي بمقتضاه درجة أعلى من أخواته وبناته، وكانت الخادمة التي تلد له طفلاً ترتقي لدرجة الزوجة. لم تعترض على أن خادمات المائدة كن يخدمنها أثناء تناول الطعام أو أن خادمات القهوة كن يحضرن لها الفناجين أو أن خادمات الملابس الداخلية كن يتبعنها إلى غرفة النوم.

لم تعترض على زوجاته الأخريات الشركيات والقوقازيات اللاتي كن يأمرن لأنفسهن ببناء دورات مياه إنجليزية، وصحيح أنهن كن يجلسن أثناء الطعام على كراس، لكنهن عاديات للغاية. كن يقتلن أوقاتهن طوال اليوم بعمل ثقوب في ثيابهن من فرط شعورهن بالملل، ويقضين ساعات طويلة في الحمام ويعتنين بأجسادهن ويتصفحن جرائد الموضة. كن نهمات عند تناولهن الوجبات التي يلتهمنها التهاماً ليسمن بها أنفسهن.

لم تكن تنقصها الفخامة ولا الترف والرفاهية، لا من حيث الأثاث ولا الأشياء القيمة، ولا من مزهريات البورسيلان الصينية، ولا الخزانات الفارهة المزدانة بتصميمات الروكوكو التي يبدعها ويُصنّعها مهندسو ديكور أوروبيون. ولم يكن ليفوتها أن يكون على مرايات الحوائط نجمة لامعة، وأن تُعلق ستائر عصرية متينة بين الستائر القديمة المصنوعة من استبرق. ليس هنا شيء مريح أو لين. وسائد الديوان ذات

التطريز الجميل كانت قواعدها عبارة عن دعامات خشبية صلبة.

كانت تقابل النساء الأخريات في أغلب الأحيان أثناء زيارة الخديوي فقط. وهنا يكونون معًا ما يشبه التعريشة، حتى الخادمات كن يأتين غير محجبات، وكان الخديوي يستعرضهن وهن يصطففن أمامه تلف أجسادهن ثياب رقيقة ضيقة وقد ازدن بالحلى الثمينة وتعطرن بعطر نفاذ قوى. كانت جاويدان هانم، شأنها شأن الأخريات كذلك، تركع عندما يمر أمامها وتقبل الأرض التي تمسها أقدامه، بينما يواصل السير وحده خافقاً أكثر منه منتشياً بالفخر.

فإذا ما أفصحت نظرته عن رغبته في خادمة من خادماته فإن جاويدان هانم كانت تعطيها إشاربين مع قميص نوم حريري وعددًا من الواقيات الذكرية. وبينما كانت هناك أخريات تحممنها وتعطرنها وتنزعن عنها شعر جسدها، كانت المخلوقة الإفرنجية تعلمها كيف تدخل حجرة العروس وهي تنحني انحناءات ثلاثة، وتسير بصمت حتى تصل لرجل السرير، ثم ترفع غطاء السرير الحريري المذهب، وتقبل أقدام الخديوي وتزحف تحت الغطاء متوجهة نحوه وتسلم نفسها له يفعل بها ما يشاء، وتؤكد عليها ألا تطلق أية صرخة إذا ما شعرت بألم حارق يسري في جسدها وألا تُشعر الخديوي بضيق نفسها عندما يلقي بنفسه فوقها.

وعندما رأى إسماعيل أن مثل هذه المرأة بالذات تخضع لما تفرضه عليها تقاليد الحرملك لم يعبأ بأن يدرك الآخرون أن موقفه منذ هذه اللحظة قد صار بلا أمل. عندما كان يجلس مسهداً على سريره في الليل كانت أعضاؤه تؤلمه، وكان يوهم نفسه بأنه يتحول إلى تلك المرأة. كم ابتعد عن الخديوي! نظر في المرآة واكتشف ثمة غضب في عينية؛ دفع بالطربوش نحو جبهته في جسارة مستمتعاً بهذا الأسلوب الإفرنجي الفج في التعامل مع الأشياء؛ كان يقرأ الكتب مثل جاويدان هانم ويحب الأشياء عديمة الفائدة، بل الأدهى أنه صار يفكر أكثر وأكثر في التقديرات الإلهية.

استشعرت جاويدان هانم ما يدور داخل إسماعيل. وذات مرة أثناء إحدى إقاماتهم على ضفاف النيل، كان الخديوي آنذاك يقود إحدى معاركه ضد الطبيعة، بادرته بالحديث فأطرق بنظره قلقًا. كانا واقفين في شرفة استراحة الصيد الصغيرة، وكان أسفل التل مستنقع تنتشر حوله خضرة يانعة، هنا وهناك، وعندما يجف المستنقع كانت أعمدة التليفونات تبرز من قلب المشهد.

عندما رفع رأسه مرة أخرى أشارت جاويدان هانم نحو العمال والجنود أسفل التل الذين كانوا جميعاً مصابين بالملاريا. قالت له إنها لا تخشى المرض، ولا تستخدم مادة الكينين للعلاج، وإن المستنقعات لن تضرها في شيء. قد يلدغها البعوض؛ إلا أنها لا تخاف، وأن الخديوي إذا ما جاء لمباشرة هذه الأعمال فإنه يحطم هناك أيضاً جزءً منها، لكنها كانت تعلم أنه لا يدرك

مثل هذه الأفكار ؛ وأنه في الحقيقة لم يتوج امرأة ، بل توج جزءًا من الطبيعة البرية، لتكون أميرة.

لابد أن جزءًا من عقلها كان ملبوساً به. كانت تحبه بولع شديد، بدا ولع سحرها كائناً ثالثاً، ملاكاً يحل فيها رويداً رويداً محل ذلك المخلوق الفاني، كانت يداها ترتجفان وكان يعلو جبهتها ظل إلا أنها استمرت في الحديث بجفاف دون أن تظهر مشاعرها وهي تتحدث عن أزمتها (كان لهذه الكلمة وهي تخرج من فمها وقعاً مغرياً)، بل إنها بدت بشكل أو آخر وكأنها فخورة بمرضها. قالت إنها تستحوذ عليها فكرة قهرية بأن تعانق الخديوي دائماً عناقاً عذريًا.

ثم صمتت بعدها إلا أن شفتيها استمرتا في الحركة. كان يحيط برأسها شيء أشبه بالكرة الزجاجية؛ وكان إسماعيل عندئذ ينظر لنفسه كما لو كان ينظر بازدراء إلى شخص آخر غريب، يختفي بصمت في يوم من أيام الصيف في مكان ما على النيل ولم يكن يعلم هل هذا الشخص حقيقي فعلاً أم أنه وهم يتوهمه. لم يعد الوقت يمر. دخل المساء. أتى الصباح، وهما لا يزالان يحلقان في خيالاتهما فوق شرفة الاستراحة الصغيرة. ثم عاد الخديوي كما قال سلفاً لاحتساء الشاي. وللحظة لم يكن هناك أى وجود أو معنى لأي شيء معجز أو خارق فقد تحولت جاويدان هانم مرة أخرى إلي سيدته الآمرة، وأرسلته ليشرب بعض المرطبات بينما افتر ثغرها عن ابتسامة أهدتها لملكها.

لم يكن إسماعيل وقتها يجرؤ على أن يأمل في أن يصبح حرًّا في يوم من الأيام. صحيح أنه تسبب بعد ذلك اليوم الصيفي على النيل في حدوث قلق واضطرابات كبيرة دون قصد في حرملك الخديوي، إلا أنه كان ينقصه الهدف الواضح لكي يمكن وصف ما حدث بالمكيدة المدبرة. كان لفرط إحساسه بالمهانة يترك الأخبار المتسللة حول انحلال المملكة العثمانية تصل إلى السيدات والهوانم والإماء. لم يخطر ببال النساء أن تكون هناك قوى حديثة يمكنها أن تكنس بلاد الشرق. أما الخديوي ومخلوقته الإفرنجية اللذان كانا يعلمان ذلك فقد امتنعا تماماً عن التفكير حتى النهاية في هذا الفصل الأخير الذي يمس حياتهما الخاصة. لم يكن الخبر الصحفي الذي وقع في يد نساء الحرملك مستغرباً أو مدهشاً في حد ذاته، فقد نشرت جريدة بريطانية، سعياً منها أن تضر بسمعة الخديوي، خبراً تشير فيه إلى شكوكها في أن الخديوي لا يحتفظ على ذمته بزوجة واحدة فقط متمثلة في جاويدان هانم، وذلك على العكس من الاعتقاد السائد حوله بهذا الصدد في أوروبا.

كان مثل هذا الاتهام يعد أمراً غريباً وغير مفهوم بالنسبة لنساء الحرملك كُنَّ لا يفهمن عواقبه. فلم يكن يصغين أبدًا عندما كانت جاويدان هانم تتحدث أحاديث مطولة للخديوي حول هيمنة الإنجليز على الإمبراطورية العثمانية. لم يكنَّ يعلمن أن أحاديثها عن السلام العالمي الإنجليزي الوشيك ستقوي الخديوي في طموحه في الحصول على المزيد من

الأرض والمال لشخصه؛ وبناء على نصيحتها كان أطباؤه ومعماريوه ورؤساء إسطبلاته وخبازوه كلهم نمساويون.
كان الخديوي وجاويدان هانم يحبان أن يحتاطا لما قد تصير عليه الحياة يوماً في تقلباتها إلا أن هذا لم يكن يزعزع من اعتقادهما بأن الحياة الملكية ستستمر للأبد. كانا يستمتعان بإقامتهما الصيفية في القسطنطينية، غير متأثرين بأن شباب الأتراك يسيطرون منذ ثلاثة أعوام على تركيا وينادون بدستور أوروبي، كما لم يباليا كثيراً بإعلان الإمبراطورية البريطانية ضم بلد تلو الآخر في الشرق الأوسط ضمن مناطق حمايتها. بل أنهما لم يتأثرا في ذلك الوقت عندما علما أن الخديوي قد صار، منذ مدة طويلة، على مرمى نيران سادة المستعمرات الإنجليزية. خف التوتر مرة أخرى بعد موجة الاحتجاجات والسخط العنيفة التي نددت تحديداً بذلك العار الذي ألحقته المخلوقة الإفرنجية بحرملك الخديوي، وأمر الخديوي بإحراق الجريدة. أما إسماعيل فقد أدرك أن ثمة حقبة جديدة قد حلت وسجل التاريخ في ذاكراته عام 1911.

ساد الاعتقاد أيضاً بأن جاويدان هانم هي من استوقد نار هذا الخطر الذي داهمهم وألم بهم. استطاعت جاويدان هانم بكثير من المهارة والحذق وبعد عنت كبير أن تنتزع من الخديوي الإذن بمرافقته أثناء افتتاحه سد النيل الجديد متنكرة في زي ضابط مساعد، حيث اندست في زي رسمي لضابط سلطاني ووضعت عليها البزة ذات الياقات المنشاة المنتصبة والأكتاف

المبطنة، وحشت البوت اللامع من الأمام بالورق وعطرت منديلها وأخفت يديها في الأكمام الواسعة.

توقع الخديوي ألا يزيد الأمر على مجرد تنكر بسيط. لا يأتي من وراءه ضرر، إلا أن ابتسامتها لم تدع مجالاً للشك في أنها كانت تحس بنفسها فعلاً كرجل وكانت تقول أن أي سيدة ذات ذوق رفيع لابد، وأن تقع في غرامها بوصفها رجلاً. إسماعيل فقط هو من كان يعلم بأمرها. على محطة القطار المزينة في القاهرة وقفت كضابط معاون صامت خلف الخديوي يحيط بها الوزراء والضباط وبعض المتفرجين من الأوروبيين. وعندما كان لابد أن تصعد إلى القطار الأبيض المخصوص. كانت درجات السلم أعلى من أن تصعدها بمفردها، وكان على إسماعيل أن يساعدها في صعودها ثم كان عليه بعد ذلك أن يقف أمام مقصورة القطار لحراستها، وأن يعطي إشارة بطرقه على الباب عندما يظهر أى شخص. كانت جاويدان هانم تقف أمام الخديوي وقد ثنت ذراعيها، وعندما كان يقول لها شيئاً كانت ترد بانحناءة عميقة.

كانت مأخوذة بالموسيقى وبالأعلام وبالمتفرجين والفضوليين، والذين كانوا ينتظرون السفينة في الأقصر. كانت تعتقد أنها ستشهد معجزة في وادي الملوك، وتعتقد أن الكتابة الهيروغليفية تخفي عنها سرها الخاص. زعمت فيما بعد أنها اكتشفت فوق النيل شمساً جديدة تأتي من الماء، شريطاً منيراً. كان الخديوي يجلس فوق سطح السفينة ويراقب القرى التي تعلوها الأعلام الحمراء، والفلاحين المتراصين على حافة

النهر ملوحين له، وكانت جاويدان هانم تقف خلفه وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة وتخيلت كيف يحيل النيل الضفاف إلى حقول قطن بيضاء، وكيف يحولها إلى مراعي برسيم أخضر وحقول ذرة متموجة.

كانت الثيران تدير السواقي بأعين معصوبة على ضفاف النيل، والناس تعيش مع الحيوانات معًا في أكواخ طينية مسقوفة بقش الذرة. كل هذا ملك له. أمسكت بيده وقبلتها ووضعتها على جبهتها. ولما رأته يستدير نحوها مندهشاً لما فعلت قالت له: أطال الله عمر مولانا، وهنا فهم الخديوي.

بعد غروب الشمس ألقيت الخطافات عند المراسي. واستقبل شيوخ وباشاوات المنطقة الخديوي في خيمة كبيرة. وجهت نحوه كل الأضواء الصادرة من أي مصدر من مصادر الضوء من المشاعل ومصابيح الجاز، ولأنه لم يكن يدخن، فقد كان يمسك بالشيشة المخصصة لمثل هذه المراسم في يده دون أن يدخنها وكان إذا سأل سؤالاً أجابت عن أسئلته بعض الأصوات الخافتة ممن حوله. بالمناسبة، كان إذا رزق رجل من القاطنين على ضفاف النيل في ذلك الوقت بطفل ذكر فإنه يركب قارباً شراعياً ويسير به بمحاذاة ضفة النهر وينادي: لقد ولد لي طفل ذكر وأريد له اسماً. فماذا أطلق عليه؟ فإذا ما كان أحد الأشخاص مستيقظاً وسمع السؤال، فإنه سرعان ما يلبي نداءه ويتلقى الأب اسم الوليد عبر النيل. الليل والنهر وصوت غريب، ذلك ما كان يحدد اسم الصبي الجديد.

كم كان انتشاء جاويدان هانم -التي تنكرت في زى ضابط- عظيماً عندما وقعت ابنة دوق إنجليزي في حب "الضابط الصامت". وكانت الكونتيسة الإنجليزية قد استعلمت عن هذا الشاب التركي. بعدها صارت طريقتها في سيرها مليئة بالثقة بالنفس والوعي بالذات وكم كانت تلاقي السيدة الإنجليزية بنظرات مستهترة.

كانت وقاحتها تفتن إسماعيل. كان يجد متعة في حلوله وخروجه من جسدها. لم يكن يستطيع أن يفسر لنفسه هذه العملية بالضبط؛ كيف يمكنه مغادرة جسده ويتوقف لبرهة داخلها، ثم يعود بعد ذلك لذاته مرة أخرى ليجد إنساناً آخر مختلفاً.أما الخديوي فقد كان يشعر أن جاويدان هانم تهزأ به. وعندما عاد إلى القاهرة كلف من يعود بها إلى الحرملك، وسافر في نفس اليوم خمسة أسابيع إلى مكان ما ولم يفصح لأحد عن الغرض من هذا السفر، وانتاب جاويدان هانم الحزن ومكثت لأسابيع طويلة أمام البيانو البيكشتاين. مرتدية قميصها القطني وأضفى حجابها، الذي لم تعد تخلعه حتى في غرفاتها، على وجهها ملامح التنسك. وظلت قمصان النوم الحريرية في الدولاب دون أن تُمس، وعلى الأريكة المعطف والحجاب والقفازات.

أخذت أصابعها تمر بيأس على مفاتيح البيانو. وعندما ساد الصمت رأى إسماعيل سحب دخان السجائر تنسل خارجة من فتحات الباب. المرأة، كما صنعتها الطبيعة وكما يستخدمها

الرجل اليوم لأغراض معينة، هي عدوته ولا يمكنها أن تكون سوى أمته أو سيدته الطاغية، لكنها ليست رفيقة دربه بأى حال من الأحوال. سمعها إسماعيل وهي تقرأ بصوت مرتفع "لدينا الخيار فقط في أن نكون مطرقة أو سنداناً". لعلها خمنت حتماً أن هناك امرأة منافسة بدأت في الظهور. امرأة أخرى، ليست كالمرأة المجاورة لها التي أنجب منها الخديوي ستة أبناء، ولم تتمكن على الرغم من ذلك من أن تنكر أنها كانت جارية لدى أمه. هذه المرة ليست المنافسة بينها وبين خادمة أخرى يدعوها الخديوي لتأتيه عندما يواتيه مزاجه لذلك. لا بد أنها مخلوقة إفرنجية مثلها، ربما كانت راقصة من باريس، هي أوروبية على أية حال.

بعد أن عاد الخديوي أملى على إسماعيل خطاباً، بدلاً من أن يستوضح الأمر لنفسه، يتهم فيه جاويدان هانم أنها استقبلت سيدات أثناء غيابه. كانت ممنوعة من أن تقابل أى أحد. كان يحب أن تكون له كما يريد، أن تكبر أو تصغر، حسبما تقضي رغبته أو حاجته، زجرها بشدة ليزج بها في النهاية في قصر عابدين بشكل رسمي تماماً. قرأت الخطاب مرة تلو المرة وتعذبت بالسؤال: من ذا الذي افترى عليها. امرأة بجانبها أم محظية من محظيات الخديوي؟ أم إحدى بناته؟ كان من شر نسوة الحرملك ومن فرط طغيانهن أنهن كن ينفثن دخان سجائرهن على فم طفل صغير حين يفرغن منها، ولم يكن هذا الطفل يفعل شيئاً سوى مجرد تواجده، فقط لكي يشعل لهن

السجائر بإشارة من أيديهن. ولكن ماذا يمكن أن يحدث عندما تضع مثل هذه المرأة رضا الخديوي وسعادته نصب عينيها؟

سمعها إسماعيل تنادي عليه عبر الباب الموصد. بعدها بلحظة صرخت منادية عليه مرة أخرى، عابت عليه جبنه، وقالت له إنه معوق ويعتقد في نفسه ما ليس به. ثم سرعان ما استعادت جأشها، وقالت له: إذا كان هناك امرأة أخرى. أريد الترحيب بأختي الجديدة ومعانقتها، هكذا ردت على نفسها ردًّا مهدئاً. كان على النيل، والملك لديه التزامات كثيرة، وبدا لها أنها في النهاية ألحت عليه كثيراً، قالت له بصوت رقيق: يا حبيبي، إنك تغضبني.

بعدها بساعتين لم يعد هناك أثر ليأسها. كان إسماعيل قد طلب من الوصيفة مساعدة جاويدان هانم في ارتداء ملابس إسلامية للخروج إلى قصر عابدين، وأن تعطيها التنورة الحريرية السوداء والكاب الذي يشبه الخمار والبرقع الأبيض. بدا شكل جاويدان هانم مغرياً. هكذا سارت وهي غير مخطئة عبر الممر المقنطر إلى مخرج الحرملك. بدت فاتنة للغاية في هذا الحجاب الكامل الذي يلامس الأرض، ولم تكن هذه الفتنة فقط بسبب لعب عينيها. فقد بدا الحرير المتموج وكأنه سيجردها من ملابسها. كانت تحس أنها الآن عارية، ولأنها كانت منتقمة، فهكذا يجب أن تكون.

وعلى ما يبدو فإن الكعب العالي الذي كانت ترتديه هو الذي فرض عليها أسلوب سيرها هذا الذي كانت تعرج فيه قليلاً، وهو الذي كان يسبب نقرًا يقطعه صوت احتكاك كل بضع

خطوات عندما يقع الكعب في شق في الأرض تضطر معه أن تجر الحذاء قليلاً عن الأرض. هذا الصوت ذو الإيقاع المنتظم هو ما دفع اسماعيل إلى أن يفكر في أن ساقيها ربما تكونان متوترتين، وأن عضلاتها مشدودة. كانت هذه المخلوقة الغريبة تتبختر مثل الحصان وهي تنزل فوق الممر. فيما بعد بدا لإسماعيل وهو يرقبها في السيارة أن الكراهية والاشتهاء بالنسبة لها إنما كانا ينتميان لبعضهما البعض. انطلقت السيارة خارجة يحيط بها الحرس الملكي على صهوة جيادهم. ثم انطلقت الإشارة فتقدم الجنود ممتطين خيولهم البيضاء وأوقفوا الترام والسيارات لكي يفسحوا الطريق للموكب.

ولأنها تسللت من الباب الخلفي إلى القاعة المهيبة لقصر عابدين لم يزعجها الحضور لدى الخديوي. ظلت جاويدان هانم واقفة خلف عمود رخامي، من هنا كان بإمكانها أن تتابع ما يحدث دون أن يلحظها أحد. كان الخديوي يعلم من أين تراقبه، وكان يستمتع بمثل هذه النظرات. كان يرتدي زيًّا رسميًّا أبيض خاصًا بالبلاط يزدان بزينة ذهبية، يحيط به الشيوخ بجلابيبهم وعباءاتهم الطويلة. كانت الأوسمة العثمانية تزين صدره. قام أحد الخدم بصب الشاي الساخن له، سكتت همهمة الشيوخ. ظلت عينا جاويدان هانم مرتكزة على طربوشه، وتحركت يداها نحو رأسها كما لو كانت تضغط بالقبعة الحمراء على شعرها القصير.

لم يعطها الخديوي أي إشارة، لم يهز قدمه، لم يحك رقبته، لم يلعق إصبعه سريعاً، لم يداعبها بحركات مستهجنة بعينيه. كان

يتجاهلها. في اللحظة التالية خشى إسماعيل أن تندفع وتقوم بحركة من حركاتها مع الخديوي أمام جميع الشيوخ. كانت تعتقد أن ذكرياتها لو انهمرت على الواقع لأغرقته في فيضانها. إلا أن جاويدان هانم لم تحرك ساكناً، وظلت عيناها باردتين. وبرقت عيناها ببريق يشوبه الحذر المحسوب والجنون كذلك. تحديداً في هذا الوقت نادى المؤذن للصلاة. ظلت وجوه الشيوخ متوجهة نحو مليكهم وهم يغادرون القاعة. وكانوا ينحنون وهم يخرجون منها بينما كان الخدم والحرس ينسحبون للوراء، ولم يتبق في القاعة سوى الخديوي الذي ظل ماكثاً على عرشه بلا حراك، على نجمته البعيدة، في سماء ملك خالية. ثم، بعد برهة، وجه سؤالاً مباشرة باللغة الفرنسية وهو ينظر تجاه العمود: "فيم تفكرين، حبيبتي؟" تقدمت جاويدان هانم خطوة للأمام ورفعت حجابها. توجهت نحوه بثقة ورباطة جأش وقدمت له جبهتها ليقبلها. سألها: "ماذا فعلتِ في غيابي؟" أجابت: "لا شيء، سوى أنني قرأت كتبًا ولعبت على البيانو". وأضافت أنها لم تقم بشيء منعها عنه، وأومأ إسماعيل برأسه موافقاً. لم تجتمع بالسيدة الإيطالية، ولم تقم بجلسات تحضير أرواح. ولم تجلس وسط دخان السجائر مع الهوانم الأخريات على المائدة للتحديق في بؤبؤي العينين الكبيرين بوجه الساحرة الذي تغرقه البودرة البيضاء، تلك التي كانت تشرب مياهاً غازية بطعم البنفسج وتدون بيد مرتعشة رسائل العالم الآخر."لا شيء." كما أنها، وذلك بحسب ما اضطر إسماعيل أن يقر به، لم تقم حتى

بالسماح للهانم الأخرى بالجلوس في حجرتها والاستماع لعزفها على البيانو. هذه الهانم الأخرى كانت زوجة أمير منفي ضمها الخديوي إلى حريمه. كانت هذه السيدة المصرية ذات الشعر المصبوغ باللون الأصفر قد تلقت رسائل تحتوي على إشارات جنسية من شيخ فارسي قادم من القرون الوسطي، ولأنها لم تكن تفهم الفارسية فقد كانت جاويدان هانم تقوم في المعتاد بتكليف آخرين بترجمة هذه الرسائل إلى اللغة العربية. وبينما كان الخديوي يدقق فيها النظر باستعلاء لا يخلو من استبداد، ظلت نظرته ملتصقة بنتوءات معطفها التي كانت تنخفض وترتفع ببطء. وأثناء ذلك لم تلعب جاويدان هانم بمفاتنها ولم تتصرف بخضوع. بل تقبلت بكل هدوء أن الخديوي لم يعرض عليها الجلوس، وأنه كان يرمقها بنظره كما لو كانت عاهرة. "لا شيء" قالتها مرة أخرى.

لم يمض تصرفها البارد المفتعل بلا أثر، فقد بدأ الخديوي يتكلم بنبرة حميمية وسألها عن "بوفتيكريكس"، أجمل ضفدع في مجموعة ضفادعها. قالت له إن عدد الذباب هذا العام كان أقل مما ينبغي ورفض الضفدع أن يقفز إلى راحتها. كانت تصطحب الحيوانات التي كان الخديوي يأمر بجمعها من المستنقعات معها في أسفارها في علب مثقوبة وكان واضحاً أنها نحيلة وهزيلة للغاية بسبب الجوع، ولذلك فإن جاويدان هانم كانت قد رجت أحد ضباط الخديوي أن يصطاد لها ذباباً حيًا وأن يراعي ألا تحدث له أية أضرار لأن الضفادع لا تأكل حشرات ليس لها رأس وقدم. ولذلك أخذ الجنود الملكيون

يهيمون على وجوههم في الأحياء الفقيرة بالقاهرة لصيد الذباب والهوام.

كان الخديوي يستمع لها منتبهاً لما تقول، فقد كان يشاركها حبها للحيوانات. كانت تعتبر نفسها تنتمي إلى الحيوانات، وكان يمتلك هو القدرة على تطويعهم وفقاً لإرادته، فقد كان يركب الخيل العنيدة، التي لا يستطيع أحد امتطاء ظهورها، وكم كان يقول عن الكلاب التي ترعاها جاويدان هانم بكل عناية، يا حبيبتي، إنهم يضحكون عليك ويسخرون منك. وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من ترويض كلاب الصيد البرية الخاصة به، وكذلك صبرت على ببغائه الكُكتوه، الذي قام بعض أذن أحد الخدم، ومن يومها ظل حبيساً في قفصه المصنوع من النيكل، ولا يكف عن الصراخ.

كانت تعطي الانطباع دائماً بأنها ذات سيادة وهيمنة، كانت لها قدرة على جعل الخديوي يفعل ما تريد وتعامله كما لو كان طفلاً سيئ التربية. في النهاية تركت قصر عابدين في احتفالية رسمية. في المساء تصرفت ببديهة حاضرة، عندما أتى الخديوي دون إعلام مسبق إلى حديقة الحريم، وكان يسير خلفه أمير تركي. كان هذا الأمير قد أبدى رغبته أثناء إحدى النزهات بالسيارة في رؤية القصر الصغير الذي به الحرملك. كان ممنوعاً على الخديوي أن يذكر شيئاً عن حريمه، وكان يجب عليه أن يلبي رغبة ضيفه في الوقت ذاته. كما أنه لم يكن مسموحًا للأمير التركي أن يلتقي بالنساء، وعليه فقد قام الخديوي بالتنزه معه في الحديقة التي تصير خالية تماماً في

المساء، على أمل أن يكون بذلك قد أرضى ضيفه بشكل أو بآخر.

هنا قامت جاويدان هانم بنقل النساء إلى الطابق الأول، ثم كلفت إسماعيل بنقل الخبر للخديوي بوضوح بصوت مسموع، بأن الغرف أصبحت خالية. وعندما سمع الأمير التركي هذا، طلب من الخديوي أن يرى الحرملك من الداخل، كان يجد لذة نادرة في إلقاء نظرة على أسرَّة غريبة. يبدو أن الخديوي كان قد أعجب بهذه اللعبة المثيرة، حيث إنه أعلن قبل مغادرته الحرملك، أنه سيأتي لزيارة حريمه في ذات الليلة.

لم تكشف الأسابيع التي تلت ذلك شيئاً مما كانت جاويدان هانم تخطط له، فقد اعترت الحرملك موجة من الاضطرابات والقلق حيث إنه في ذات الليلة التي زار فيها الأمير التركي الحرملك حملت إحدى الجواري من الخديوي، وكانت هذه الجارية قد حاولت أن تخفي انقطاع طمثها باستخدام دم الحمام ولكن بلا جدوى. منذ تلك اللحظة حظيت تلك الجارية بكره مضاعف من نساء الحرملك، كرههن لها كأم وكامرأة. قبل عدة سنوات غير بعيدة لم يكن من الممكن فقط أن تسقط بين يدي القابلة الدمويتين، بل في أغلب الظن كان ستُلقى في النيل. أما الآن فيجب عليها أن تحيك يوميًا أقمشة رقيقة تستخدم في صناعة الشبكات، كان عليها أن تصنع منها ناموسيات، وإذا ما انتهت من صنع إحدى الناموسيات تنتزعها إقبال هانم

بغضب وغيظ من بين يديها، وتمزق ما حاكته وتأمرها أن تعيد ما فعلته من جديد.

على العكس من جاويدان هانم التى كانت تنأى بنفسها عن كل ما يضايق أو يثير الأعصاب، فقد كانت تقضي اليوم بأكمله في عزف السوناتا الاحتفالية، وتبدو وهي تصنع هذا كما لو كانت تعيش في عالم آخر. أما إسماعيل فكان يتحتم عليه دائماً أن يخرج من سجنه أولاً، فعيناه تطالبان بالإشباع، كان يريد أن يرى أخيراً ما منع عنه، كان يريد أن يرى ويعرف ما الذي يمكن أن يسبب مثل هذا المرض الجميل، أراد أن يصبح إنساناً له تاريخه الخاص.

عندما زار الخديوي جاويدان هانم أخيراً في غرفتها -لأول مرة منذ ذلك اللقاء في قصر عابدين- اختبأ إسماعيل في أحد الخزانات الضخمة التي كانت في غرفتها. استلقى الخديوي عارياً على ظهره، بينما لم تخلع جاويدان هانم عنها قميصها القطني. ثم طلب منها أن تريه ما تقدر عليه. هنا رأى إسماعيل وجهها يختفي ...ثم فعلت ... ما لا يمكن وصفه ولا النطق به.

صرخ الخديوي مرعوباً، ولكنها لم تتركه. فسألها منذعراً عن سبب ما تفعله، فأجابته في برود، لأنها تعلم أن هذا يثير شعوراً طيباً، فصرخ فيها مرة أخرى سائلاً، عما إذا كانت قد اختبرت هذا بنفسها من قبل؟ كيف يمكن أن يأتي شخص مثل هذا الفعل؟ عندما نهضت جاويدان هانم توجهت إلى خزانة الملابس. بدا لإسماعيل أن دمه قد صار ساخناً، وأن جلده قد

احترق. تصاعدت فيه مسطحات ملونة وأصوات مختلطة آتية من منطقة ما داخل جسده، وتدافعت لأعلى نحو رأسه، وضغطت على جبهته.

الآن اتخذت الصور والأصوات حدوداً لها ومعالم، ورأى أمامه سوق العبيد في أسوان، ورأى هناك أحد مسئولي البلاط وهو ينقد التاجر بعض العملات المعدنية، ثم وهو يصحبه، أى إسماعيل، بعيداً في عربة حنطور. رأى وجه أم الخديوي، التي كانت تجلس على مأدبة إحدى المحافل بلا حجاب مثلها مثل باقي النساء الأخريات، واستقبلته، وهو آنذاك صبي صغير وكانت نصف ساخطة، ونصف مشفقة.

ثم أخيراً استطاع أن يتذكر أن أم الخديوي كانت في زيارة لبيت أحد الباشوات في أسوان، لتبارك زواج ولده. رأى الأعلام والمصابيح معلقة بالطرقات المحفوفة بالأشجار، وجموع الناس من الفضوليين، سمع الموسيقى، ورأى السجادة الحمراء، التي حمله فوقها أحد الخدم ودخل به القصر، والأثواب والوسادات الحريرية، والعروس، طفلة يتدلى من أذنيها قرطان من الماس، ما شاء الله! حماها الله من نظرات الحاسدين! رأى سرير العروس المعروض للعيان، وقميص العروس، وكل الملاءات، الكتانية المنسوجة بعناية ودقة فائقة، والخف الصغير المزدان باللؤلؤ في الحرملك. وفي الخارج، في خيمة الاحتفال، حيث أقيمت المأدبة الفارهة، والدراويش، والمغنون، ولاعبو ألعاب الخفة، والذهب والقمح، الذي كانوا ينثروه فوق رأس العروس، والراقصات شبه

العاريات، اللاني تقوم الهوانم بلصق قطع من الذهب المندى على جباههن، كن يقمن بأداء حركات مليئة بالنشوة بينما صياحهن النافذ يتعالى.

لم يكن هناك طريق آخر لمعرفة الحقيقة، غير الشعور بهذا الألم. انسل إسماعيل إلى جسد الفتى ذي الأعوام الخمس، الذي كانه ذات يوم من الأيام، صبي ينعم بخصيتين رائعتين. كانوا آنذاك قد ألبسوا إسماعيل قميصاً مخمليًا أحمر اللون، كي يتم تقديمه هدية لأم الخديوي، وكان قد أمر بأن يلقي بنفسه عند قدمي السيدة النبيلة. هدية ملكية للملكة، كما يليق بقدرها، ولأن الملكة أخذته بين ذراعيها بشيء من التأفف فقد أمطرها بالقبلات، كما شاهد النسوة من حولها يفعلن ذلك معها. تقبلت الملكة الهدية، كما لو كانت مرضاً. وبعد بضعة أيام تعرف إسماعيل على الخديوي المستقبلي بالقاهرة، الذي كان في مثل سنه. عاش وترعرع الاثنان في الحرملك معاً كرفيقي لعب حتى جاء اليوم الذي خصوه فيه .

في الأيام التي تلت ذلك ظلت مثل هذه الذكريات تعذب إسماعيل دائماً وأبداً حتى أصبح الألم يعني بالنسبة له لوناً من ألوان السعادة، وإذا ما عن له أن يهرب من هذه الذكريات، فإنه كان لا يشعر إلا بالفراغ. مثل هذه اللمحات التي كانت تخطر بباله، كانت تحول بينه وبين التقلص والتلاشي. نعم، فقد كان يشعر بأنه ينمو. كما تعلم ألا يتحاشى هذا الألم، الذي

يعيد إلى ذاكرته في كل مرة لمحة من ماضيه، بل تعلم أن ينتظره ويرحب به.

كان جسده مخدراً بشدة، لدرجة أنه لم يلفت انتباهه في بادئ الأمر، ما دسته جاويدان هانم في يده ذات صباح. كان عليه أن يسلم الخطاب إلى الخديوي. كان قرارها حاسماً. طلبت الطلاق وعادت إلى فيينا. فالصراع بين الرجل والمرأة، كما جاء في خطابها، هو صراع بين عدوين لدودين. أما عن تلك القوة التي تجذب الجنسين لبعضهما البعض فتنبع من هذه العداوة، وأن الناس يسمون هذه الخيانة حبًا. وأن كل قبلة تؤدي إلى الدمار، وكل ضمة تعتبر نوعاً من أنواع القهر والقمع. وأنها أرادت أن تقبل الخديوي حتى الموت، وأن تحبه حتى الموت، وأن تسحقه حتى الموت. وأنه لا رجل بوسعه أن يتصور طبيعة النساء، وكم هن قويات.

أثناء الوداع، وضعت جاويدان هانم يدها على جبهة إسماعيل، ثم أرته دش البيديه الذي كان في حمامها الذي كانت تستخدمه عقب كل مرة تمارس فيها الحب مع الخديوي، وتغسل به نفسها، مما ساعدها على أن تظل بلا أطفال.

عادت جاويدان هانم إلى فيينا عام 1913. واندلعت الحرب العالمية الأولى بعد عام من عودتها، وخلع البريطانيون الخديوي عن العرش، إبان إحدى إقاماته في القسطنطينية. وانبغى على الخديوي أن يعيش بقية حياته يعمل مصرفيًا في

منفاه بسويسرا. عبر إسماعيل إلى المدينة على مضيق البوسفور وهناك أعرب لأم الخديوي عن رغبته في أن يعيش في المستقبل في أوروبا فمنحته المال، وواصل سفره إلى باريس.

في كل مرة كان إسماعيل يحكي فيها عن سيدته في أوروبا، كانت تزداد جمالاً، فهي امرأة خنثى، تخطو وتأمر مثل الجنرالات، ولها عنق طويل وفخذان نحيلان، وثديان ممتلئان يتمتعان بثبات غير طبيعي، وبشرة ناعمة طرية ليس بها ما يعيبها، كأنها غلاف صناعي. أما بالنسبة لمستمعي إسماعيل، فقد بدا لهم أنها شخصية ما صنعتها آلات غريبة، فإن لم يكن الحال كذلك فهي بالتأكيد إفراز مخيلة كانن ما، يهيم على وجهه بلا هدف. ويبحث دوماً عما لا يجد.

كما يُميز الناس بسماتهم الشخصية، فإن الناس كانوا يتكلمون عن العقل المميز للروائي، وعن تفكيره الجسور وغير المعتاد الذي كانت تجسده كتاباته. حتى هو شخصيًا كان يعتبر نفسه مهندسًا في فن الكتابة يتمتع بلون من البرود. ثم ما لبث أن هز عشقه لجاويدان هانم أركان عمله الأدبي، كان يزاول عمله الأدبي فيما يشبه التنسك الرهباني على وجه التحديد. على الرغم من أنه كان متزوجًا. في ربيع عام 1920 تعرف في برلين على سيدة كان قد رآها قبل عدة أعوام في ميناء تريست وأعجب بها أيما إعجاب. كانت الدوقة ماي توروك ظاهرة جذابة حكى الناس عنها أساطير. قضت شبابها في الشرق، كانت مثل عشيقات بلزاك، تتمتع بالفكر وروح الدعابة معاً.

لكن الروائي كان يجد هذه مبالغاً فيها في كل شيء. كانت تحكي لصديقهما المشترك، أخصائي نفسي، أنها لم تسمع في حياتها من أحدٍ أبدًا اعترافًا بالحب، لأنها لم يكن بمقدورها أبداً أن تصبر مثل هذه المدة الطويلة التي يتطلبها مثل هذا الاعتراف. إلا أن بهاءها وروعتها كانت تصرف النظر عن كونها سجينة رأسها. وأثناء لقاءاته السريعة بها أحس الروائي بالحيز الخانق المفرغ من الهواء الذي تعيش فيه، وسرعان ما

أطلق عليها بينه وبين نفسه اسم "ميه" أو ينسبها لنفسه فيقول "ميهتي". وجد في نفسه شيئاً يلح عليه بشدة، وهو أن ينفخ فيها، أي: "ميهته"، روح الحياة مرة أخرى. كان يحلق مع الأمل بجناحين ويفكر في أن مثل هذه المرأة ربما تكون مغرية وخلابة لأن بلزاك كان سيحبها لو رآها. ولربما تتبع هى قدرها الحقيقي عندما يرعاها روائي.

كانت سمعة "ميه" سيئة بسبب علاقاتها الغرامية التي كانت تشتهر بها. ومع ذلك كانت توقظ في الروائي تعاطفاً أرعنَ عندما كانت تلوح من الشارع أسفل البناية لنافذته، بينما يسمع الراديو، في حجرته المظلمة، مفكرًا في كل الشخصيات التي يرغب في جمعها معاً في رواية قوية. هنا، مباشرة خلف محطة القطار، غير بعيد عن تجمعات الناس، يسكن صخب المدينة. يسير الشارع بمحاذاة القضبان مارًّا بجرف شديد الانحدار. كان الناس يصعدون الرصيف على مهل كما لو كانوا قد قذفوا في هذا المشهد فجأة، إلا أنهم كانوا يلفتون النظر إليهم تماماً بهيئتهم التي تبدو غريبة عما هو معتاد في المدينة.

كان ما يقلق الروائي كل ما هو غير متشكل في داخله، ذلك الذي كان يتدافع بقوة نحو السطح. سيطرت عليه فكرة لم يستطع أن يتخلص منها، وهي أن "ماي توروك" هذه كانت قد أثارت دوامة داخله قبل عشرة أعوام، وأنها تغرق حياته الآن من جديد. كان ينزل آنذاك مع زوجته في مدينة "تريست" ولاحظ ذات يوم هذه المرأة الغريبة على الميناء؛

كان في ذلك اليوم، شأنه شأن أي شخص، يتابع بفضول مع الآخرين وصول الملك المصري وإشارات الأعلام وطلقات المدافع التي تعلن عنه، والسفينة الحربية التي استقرت على المرفأ، كان يتابع ذلك الرجل. كان الرجل مدكوك الجسم يميل إلى القصر، ويحاول أن يسير في تؤدة بينما حراسه الإنجليز يكادون يدفعونه أمامهم دفعاً عبر المرفأ. كان المشهد عبارة عن مراسم عسكرية عجيبة، ثم ما لبث أن تحول إلى مشهد مضحك عندما بدت زوجة الخديوي وهي تتهادى بأنفة فوق السجادة المبسوطة أمامها، يحيط بها من كل جانب ضباط لهم أوجه واثقة قوية؛ وهنا تلاقت نظرتها مع نظرته، وارتسمت على محياها ابتسامة .

ما من أحد كان ليفكر آنذاك في أن الخديوي، بعد هذا اليوم بأعوام قلائل، سوف يعيش في منفاه بسويسرا، وأن الضابط الإنجليزي الذي كان يسير بجواره سيدخل في حرب مع مضيفيهما النمساويين. كما أن الروائي أيضًا لم يكن ليتوقع وهو على المرفأ أن زوجة الخديوي ستدخل في حياته ذات يوم باسم الدوقة توروك. ما كان يخالجه الآن كان يبرره تبادل النظرات، كما تبرره كل الاحتمالات بأن حياته آنذاك كان يمكنها أن تنحو منحًى آخر. كان مقتنعاً كل الاقتناع بأن الدوقة أيضاً اتخذت وضع زوجة الخديوي، بمجرد أن نظر إليها.

حكايات لا تصدق، تلك التي كانت تحاك حول "ميه". يقال إن أمها، ثمة امرأة تدعى يوفانوفيتش، زوجت ابنتها، التي كانت تبلغ من العمر آنذاك خمسة عشرة عاماً، ثم مارست القوادة

وجمعت في فيينا بينها وبين آخر خديوي حكم مصر. صحيح أن الفتاة، كما يقال، رفضت في البداية، إلا أنها لم تكتف بعد ذلك بانضمامها إلى حياة الحريم، بل كانت تشعر بالسرور بذلك. قال الناس إن "ميه" لم تفقد حبها لأمها، وإنها كانت تقول إن الأمهات يمكنهن أن يفعلن بأطفالهن ما يحلو لهن. بعد طلاقها، قبل الحرب العالمية بوقت قصير، أشيع أنها تخلت عن اسمها الذي كانت تسمى به قبل الزواج وهو الاسم الذي تم تعميدها به، وأيضًا اسمها الذي أطلقه عليها الخديوي عندما كانت رفيقته، حيث إن كلا الاسمين -صوفي وجاويدان- قد فقدا براءتهما بالنسبة لها.

ووفقاً للإشاعات كانت أخت "ميه" تدون حكاياتها عن حياة الحرملك. أثناء الحرب العالمية. افتتحت "ميه" في فيينا محلاً للعطور، تبيع فيه كريماً للجلد ابتكرته بنفسها. وبعد الحرب تزوجت الدوق توروك وانتقلت من فيينا إلى برلين. منذ ذلك الحين أحبت أن يناديها الجميع باسم "ماي"، وهو اسم التدليل المنتشر بين النبلاء لاسم "ماريا" لم ير الروائي تقريباً وجه زوجها يوماً. وقد كان هذا الأخير متخصصاً في العلوم السياسية وموظفاً بالسفارة النمساوية. كانت "ميه" نفسها تعيش عند أحد الموسيقيين، كان رجلاً رخواً وغير مستقل، يجمع النساء حوله لجميع مواقف الحياة. ربما وافق انضمامها لحريم هذا الفنان ما اعتادت عليه، وربما أيضاً كانت تستغل في ذلك فقط فرصة تلقيها دروساً في البيانو التي كان يعطيها إياها بوصفه عازف بيانو ذي مستوى عالمي.

كانت "ميه" تتصرف إزاء الروائي بطريقة منغلقة، إلا أنه علم من صديقهما المشترك، ذلك الإخصائي النفسي، أن "ميه" مقتنعة بأن وجهها يفقد ملامحه الجامدة تلك التي تشبه ملامح وجوه الدمى عندما تخضع لأي رجل. الجود الحقيقي يوهن أي رجل. ويستحوذ على مشاعره. كانت متحمسة لجد الخديوي الذي كان معروفاً بولعه بالإسراف الشديد، وقد استطاع بإسرافه هذا أن يجمع حوله في القرن التاسع عشر مجموعة أسطورية من الحريم. كان هذا الرجل إذا أهدى أحداً هدايا خنقه، وإذا أحب أحدًا صادره لنفسه، وإذا بنى، هدم أحياء بكاملها. لم يكن هناك نهار ولا ليل؛ ولا هدنة ولا استراحة؛ كان العمل يستمر بلا انقطاع تحت الشمس المحرقة وعلى أضواء المشاعل تنفيذاً لأمره بإعادة بناء القاهرة لتصير باريس الشرق، كي يضعها تحت أقدام أوجيني إمبراطورة فرنسا التي كان يشتهيها من أعماقه.

في بداية فترة حكم حفيده كانت هناك امرأة ترتدي السواد تسافر سنويًا إلى مصر لكي تزور أرامل حبيبها السابق. كان الحزن المشترك يربط بين الإمبراطورة السابقة العجوز والهوانم المسنات، تماماً كما كان يجمعهن حبهن المشترك عندما كن شابات. فإذا ما زارت الهوانم أوروبا، كن يضعن الحريم في فندق باريسي. ويأخذن معهن الرجال المخصيين والإماء والسكرتارية والخدم تماماً كما كانوا يأخذن معهن طاقم أدوات المائدة الذهبي والملابس الداخلية والحناطير

الكوُبيه المقفلة التي كانوا يتنزهون بها بطول شارع الشانزيليزيه. وإلى جانب سائق الحنطور كان هناك حارس أسود مخصى يتولي الحراسة وفي العربة نصف المظلمة كانت الهانمتان تجلسان بنقابهما الأبيضين، تمامًا كما حدث قبل عدة عقود عندما اصطحبا جد الخديوي في نزهة خلوية إلى فيشي.

بلا شك لم يكن الروائي مهووسًا بالشرق، ولم يكن لينخدع بالشهرازادت. كان يرى أن وحشية بلاد الشرق مُنفّرة، وأن رفاهتها المفرطة متناهية القسوة تجعل الناس يظلون كالأطفال طيلة حياتهم. إلا أن روح "ميه" الشرقية كانت تشغله. كانت بها وحشية كوحشية آكلي لحوم البشر، وكان في هذا بالنسبة له قدر من الجاذبية لا يستطيع أن يستهين به.

هذه الهواجس كانت تنتزعه بعيداً عن عمله في الكتابة والتأليف. منذ فترة طويلة وهو يعمل على إتمام خطته بأن يجمع في رواية واحدة الفكر مع الجمال ويصلح بينهما. كان يحاول أن يشكل بقلمه مملكة فكرية قوية، رواية يمسك فيها كل فرد من شخصياته المائة بفكرة ذات مغزى.

حتى يتحقق مثل هذا المشروع كان لابد من تجنيد كل الطاقات، وكان هذا أكثر مما يقوى على فعله فرد واحد. ظلت هذه الخطة الشاملة تشغله لأعوام بكل ما تستدعيه من أسوأ أنواع العوائق والعقبات التي يمكن تصورها في سبيل تحقيقها. زوجته الحساسة كانت تخاف أن تزعجه بأي شيء أثناء انشغاله بأعماله الأدبية. فلقد كان بالنسبة لها الرجل الذي

طالما تمنته لحياتها، كانت تقوم بكل ما تستطيع القيام به لكي تخدم كتاباته. كانت دائمة الاعتذار، مما بدأ يثير أعصابه بالفعل، وبدورها كانت هي أيضاً تشعر بالتوتر لأنه كان يتوتر وكانت تشعر بالذنب تجاه ذلك.

إلا أن شكواه صارت تصحبها إثارة جسدية ظلت تتزايد حتى فاقت كل الحدود منذ أن أخبره صديقه الإخصائي النفسي عن لياليه مع "ميه". قال له إنه لم يكن يتوقع أبداً أن هناك إثارة جنسية وحسية بمثل هذا الشكل حتى عرفها، إنها ألوان من السعادة لا يمكن وصفها ولا التعبير عنها، تلك التي أترعته بها هذه المرأة، ألوان من السعادة لا يمكن تصور وجودها إلا في العالم المظلم لبيت من بيوت الدعارة الشرقية.

كان الروائي يقطع حجرته جيئة وذهابًا طيلة اليوم، لكنه كان يحرص على الوقوف على الشباك بين الفينة والفينة وهو يلقي نظرة مصطنعة نحو الأفق متخللاً بها سحب دخان سجائره. كان يتخلص من كل ما يضايقه بالتدخين. كان التدخين حياته، استجلاب نفسه الحقيقي، الذي يربطه بما هو مهم في الحياة، خصوصًا بالكتابة التي بدأ يقوم بها مؤخرًا بواسطة آلة كاتبة ذات رأس طباعة مستدير. فأن تغري الكلمات على الخروج من الآلة الكاتبة وأنت تدخن يعني أن تكون سيدًا على الطبيعة. يرتبط بهذا ثمة إحساس بديع بالوعي بالذات، سائل ثقيل ملانخولي، يمنحه صوت طرق حروف الماكينة وسحب النيكوتين الرمادية المتحالقة حوله الإطار المناسب تماماً له.

لم يكن الروائي ذا جسد رياضي، لا..، حتماً لم يكن كذلك، ولكن له هيئة ضخمة، وكان بأعوامه الأربعين أصغر قليلاً من "ميه". تلميحات صديقه دفعته، كلما صادفها، ليتأكد من حدوثها، كما لو كان يمكن العثور على آثار التجاوزات على جسدها. حدث ذات مرة أن انزلق فستانها قليلاً لأعلى وهي تهم بالجلوس وظهر له الشريط المطاطي الأحمر الذي يمسك بشرابها فوق الركبة. هنا دارت بخلده تصورات وحشية. إلا أن "ميه" بدت الآن تحديداً برينة حتى ليكاد المرء يجزم في هذه اللحظة أنه لا يمكن المساس بها. شعرها الأسود الثابت يعطي انطباعاً للآخرين بأنه مستعار. كان حاجباها واسعين، كانا كخطين ثقيلين، وكان أنفها الطويل يرسم خطاً دقيقاً متناسقاً حتى الذقن المذبب. ومرة أخرى تقسم الشفاه الممتلئة ذلك الوجه الجميل الذي تبدو عليه المعاناة من جهة والتكبر من جهة أخرى، لمح فيه صليبًا وشراعًا.

كان وجه "ميه" لا يبدو إنسانيًا إلا عندما ترفع شعرها الكاريه بمشابك الشعر وتظهر أذنيها. كان جلدها يبدو كما لو كان مدهونًا دهانًا لامعًا، وفقط عندما كانت تنحني أو تستدير كانت تظهر بعض التجاعيد على ذقنها وتحت أذنها. ولكن إذا تفحصها أحد لمدة طويلة فإنه يلاحظ التناقضات الدقيقة، وأحيانًا أيضًا أكياس الدموع تحت عينيها. هذه العلامات الأولية لتقدم "ميه" في السن جعلتها مرغوبة، جلدها المترهل قليلاً عند العضد، ثدياها اللذان على ما يبدو لم يعودا تمامًا كأثداء الفتيات.

حتى ما كان ينفره في المعتاد من النساء الأخريات كان يعجبه فيها، مثل حركاتها المصطنعة التي تذكّر ببعض المحاولات اليائسة للرجال، كل هذا من أجل الظهور أمام عشيقها كامرأة مثالية. كان فيها شيء ما يذكر بالفتيان. كان تضحك مقهقهة كضحك فتاة مراهقة عندما كانت تسخر من ضعف اطلاع الخديوي الذي سأل ذات مرة بجدية قائلاً: نيتشه، أي نوع من الحيوانات هذا؟

عندما كان الروائي يفكر فيها بازدراء كانت تقوم برد فعل فوري وسريع. كان بإمكانها أن تكون حساسة وبنفس القدر باردة أيضاً. ذات مرة ركزت نظرها عليه أثناء مأدبة طعام وحكت عن عادة لأحد الخلفاء لإثارة الشهية. كان هذا الخليفة يأمر بإلقاء أوان مليئة بالعقارب والحيات أسفل الجالسين معه على المائدة. لم يكن مسموحاً لأحد بتحريك رموشه، وعندما كان أحدها يزحف نحو أحد الجالسين ويلدغه كان عليه أن يأمل في يد الخليفة الخيرة الحنون التي توزع السم المضاد. إلا أن هذا الرجل الداهية لم يكن يعرف علاجًا ضد ضربة السيف التي قطعت رأسه، نفذها فيه عبد غريب، لم يكن غاضبًا فحسب على فعل الخليفة، لم يكن يروق لهذا العبد كثيراً ما هو سائد من اقتناع بين الناس بأن القصر مكان مقدس.

كانت عيناها تلمعان وهي تحكي هذه الحكاية المفزعة، بينما كان عضداها مرفوعين قليلاً ومستعدين للهجوم. كان الروائي يعلم أن كثيراً من الرجال ما كان عليهم سوى أن يلمسونها

فقط حتى تتبعهم في الليل دون مقاومة. وعلى الرغم من ذلك لم تسمح له بأن يمسها ولو مرة واحدة. كل شيء فيها كان يبدو كما لو كان يُعْرض عنه، مع ذلك كانت تبحث عن قربه. لم تكن أنيقة، لم تكن جميلة، ولم تكن ترتدي ملابس رياضية خفيفة، بل كانت ترتدي ملابس تضم شيئاً من كل شيء، لا ذوق فيها.. وصارخة، فمرة تأتي بفستان ضيق غامق، ومرة بآخر واسع مزهّر. كانت ثيابها في الحقيقة بلا شخصية تميزها ولكنها على الرغم من ذلك لا يمكن أن تختلط على أحد أو يخطئها، كانت تلعق سجائرها كما لو كانت حلوى ربسوس، كما كانت لها بعض العادات الغوغائية الأخرى. وما كان يجعلها أكثر جاذبية أن تهدد دومًا بالعودة إلى ما هو معتاد. كانت ملامح وجهها دقيقة للغاية، كما كانت تشبه نوعاً ما ملامح الفلاحين. عينان كعيون المها، إلهة كانت، حيواناً، شيئاً ممنوعاً ينخر في نفس من يشاهده.

يعلم الروائي أنه لا يستطيع أن ينقذ جسده من حمى الهياج الغاضب الذي ينتابه، ولم ينفعه في هذا تأكده من أنه الأفضل علماً، لا شيء يمنع تحوله إلى مجنون يصيح ويزعق ويحطم ما حوله عندما تنتابه هذه الحالة. كان الجسد يستطيع أن يخرج عن السيطرة، هكذا فجأة، بل بشكل أعنف عندما لا يصادف غاية هواه ومشتهاه لأيام طويلة.

لم يكن الروائي يخاف على شيء أكثر من خوفه على علمه. على الرغم من أنه لم يكن من الممكن أن يدعي أحد أنه لم يتمتع بفكر ثاقب، إلا أنه لم يكن يأمن على نفسه من سم

الروح. كان والده عاقلاً للغاية، أما والدته فكانت على النقيض من هذا مرتبكة ارتباكاً غريباً. ومنذ أن كان مراهقاً كانت تحركه- هذا الفتى البرجوازي- اهتمامات نزقه تتحول فوراً إلى لامبالاة عندما كان يجيد شيئاً إجادة تامة. لم يكن بالأساس ينظر حوله أبداً، بل كان يدس رأسه داخل نفسه. ربما كانت "ميه" تمثل النجدة لرجل ظل طيلة حياته مضطرباً وغير متوازن. كان الروائي ينأى بنفسه دائمًا أن يعيش حياة مسالمة تمامًا، ولم يتبع نصيحة والده بأن يعمل في السلك الجامعي، ولم يتزوج إلا من أجل والدته، دون أن يكون لديه أى حس للزواج. كان يريد أن تطاول كتاباته عنان السماء، لكنها أبداً لم تحقق المستوى المطلوب، ولأنه كان يطلب مستحيلاً فقد كانت أمانيه تتماس مع حدود المستحيل. كان أكثر موهبة، ولكنه كان أقل حذقاً، أكثر قدرة من ذلك الكاتب المسرحي الذي كان يمر بنظره على وجهه الغليظ ويترامى إلى مسامعه كلامه الفارغ الذي لا يدل على تمتعه بأية موهبة، كل ليلة في مقهى بريستول.

كان عليه القيام بأى شيء. ليس هناك شيء أصعب من التفكير في كتابة رواية. وهكذا قرر الروائي لغرض معالجة نفسه أن يكتب مسرحية صغيرة. في هذه الليلة كان قد ذهب مع زوجته إلى السينما وبعدها تمشى قليلاً في المدينة، ثم هو الآن يقف أمام نافذة حجرته وينظر إلى مصابيح الغاز الواهنة في الشارع. كان يشعر بالألم في شعبتيه الهوائيتين، كانتا تؤلمانه من فرط السجائر الكثيرة التي يدخنها. مرت بخاطره درجة

القرابة بين دوار الجبل وبين الحائل الذي يمنعه عن العمل وشغفه الخفي "بميه". في كل الحالات كان مجرد هذا التصور يوحي بالعجز، بأن المرء لن يتقدم خطوة أبعد من موقعه الذي يقف فيه. كان يرى أن بعض الاسترخاء المعقول في الجبال لن يجدي شيئاً. وعليه اتخذ قراره بالنزول إلى أرض منخفضة. كان يريد أن تنساب ملاحظاته عن "ميه" وتتدفق لتصنع شخصية مسرحية، في شخصية كاهنة الحب الجديرة بالحب دائمًا، يحملها التفاؤل، إلى حد يجعلها تُعلّم الناس قوة الحب الملهمة. وكما يتعاون العاملون في مواقع البناء على إتمام العمل معاً فإنها يمكنها كذلك أن تجمع مشاعرها مع مشاعر الآخرين، وتشعر بما يشعرون به وبهذه الطريقة يمكنها أن تكون شخصية جديدة.

لم يكن أحد يستطيع أن يقابل "ميه" أثناء النهار إلا بالكاد، وغالبًا ما كان الرد، إذا سأل عنها أحد، أنها نائمة. لم تكن تخرج من البيت إلا لكي تصطحب كلبها "البولدوج" الصغير في نزهة على بحيرة الفان زيه. لم يدخل الروائي أبداً في حوار حقيقي مع "ميه" على مقهى بريستول، وهي المكان الوحيد الذي يمكن أن يلتقي فيه أحد "بميه" كان الغناء القبيح الذي يدور على الموائد يشعره بالتوتر والعصبية. فكان يجلس صامتًا أمام كوب النبيذ الذي يحتسيه، في ذات الوقت الذي كانت "ميه" تحاكي فيه عادات عاشق جديد من عشاقها.

في واحدة من تلك الأمسيات طلبت منه "ميه" أن يصحبها إلى شقة الموسيقي. كان الموسيقي قد نام منذ مدة طويلة، وظلت "ميه" جالسة مع الرواني حتى الساعات الأولي من الصباح في حجرة الضيوف. كان كل شيء قد صار جزءًا من إزار الليل. على الأثاث الإنجليزي القديم تحدثت "ميه" عن واقعة حدثت مع صديقهما المشترك، الإخصائي النفسي، واقعة كانت تجدها مضحكة أكثر منها خطيرة.

كان فستان سهرتها الطويل مكرمشًا نوعاً ما، ووجهها يلمع قليلاً في ضوء الأباجورة الطويلة. كانت تسحب نفس السيجارة بصوت مرتفع، وكانت أنامل أصابعها صفراء أو أنها كانت تقريباً قد اكتسبت اللون الأصفر. وعندما خلعت حذاءها ذا الكعب العالي لفتت انتباه الرواني قدماها المتسختان. كان هناك قط أبيض يخرخر في حجرها، ويقفز من حين لآخر على كتفها ويلعق أذنيها. لم تكن "ميه" تتأفف من ذلك البتة. كان هناك شيء غير عادى يحدث لها، كما لو كانت تتحور إلى نبتة. كانت جملها تأتي من بعيد كما لو كانت تأتي من كأس زهرة يبتلع في جوفه نبراتها العالية.

حكت "ميه" أنها ترغب في إنهاء علاقتها مع الإخصائي النفسي حيث إنه ترجاها أن يتزوجها، ولأنها أوضحت له بناءً على ذلك بلهجة شديدة أنه لا يؤثر فيها ولا حتى طفل صغير باكٍ، عندها قرر هذا التعس أن يكون الموت من نصيبهما معًا. اتهمته "ميه" بأنه يقول كلامًا مستهلكاً، ولكنه لم يتأثر بهذا وعكف على مواصلة حلمه بسعادة تجمعهما معاً، سعادة لا

يستطيع أن يجد لها وصفاً ولا اسماً. قيدها بجورب في أحد الكراسيّ، مما جعلها تطلب منه قبلة، لكنه سحب مسدساً من جيبه وهددها بإطلاق النار عليها. إلا أن صدفة ما حدثت، فقط الصدفة هي التي جعلت جزءاً ما بداخله يعرقله ويعيده إلى رشده. ثم ما لبث أن غادر الشقة مسرعاً، بعدها أحست "ميه" بإرهاق شديد واستلقت على الكنبة. صحيح أنها كانت تلتقي هذا التعس بعد هذه الواقعة من حين لآخر، لكنها كانت تسلم نفسها له بفتور، تماماً كما يفعل المرء عندما يستدير على عقبيه بعد أن يكون قد قطع نصف مسافة السلالم، ويعود أدراجه إلى أعلى مرة أخرى ليرى عما إذا كان قد أوصد الباب فعلاً أم لا. كانت تقوم بذلك زيادة في الحرص والحذلقة، أو كما كانت تقول، لكي ترعى شيئاً لم يكن يريد أن يبلغ منتهاه.

فوجئ الروائي وذهل بأنها فتحت له قلبها، لكنها كتمت عنه حكايات الحرملك تلك التي كانت تحكيها للصديق التعس بمنتهى الصراحة والمباشرة والاقتحام. لابد أن "ميه" كانت تعلم أن الإخصائي النفسي لا يمكن أن يُستأمن على سر، لأنه لا يكف عن الثرثرة، وعلى الرغم من ذلك وثقت فيه. لم تحجب عنه سرًّا. إلا أنها أخفت عنه طموحاتها في التأليف والكتابة ووضعت عليها حجاباً، إلا أنه كان حجاباً يشي بالأسرار أكثر مما يخفيها، كان الروائي يسمع ويعرف عن الهوانم كل شيء حتى أدق التفاصيل، وأنهن كن يبتعن في

سوق العبيد وينضممن لخدم الحرملك ولا يرتقين لمرتبة الزوجة إلا إذا حبلن من السيد.

بالطبع كان الروائي يربط بين "ميه" وتلك السيدات اللاتي كن في مرتبة هانم. كن يعرفن الخوف من الخسارة وبالتالي تعلمن كراهية الإماء الأخريات. لم يكن يستطعن الانتقام من خيانة سيدهن لهن في أحد سوى في أطفالهن ولذلك كن ينفثن عن غضبهن في هؤلاء الأبرياء، كن يعاقبن الأطفال بلا سبب، كن يمنعوهم من الخروج للتمشية والتنزه ويحبسوهم في حجراتهم أو حتى يلقين بهم من النوافذ. كانت الأطفال بالنسبة لهن هدايا لا قيمة لها أهدوها ذات مرة لسيدهن، والآن يسعين لتدميرهم ليعاقبوه على نزواته.

وبينما كان يفكر في أمهات العبيد كانت "ميه" تداعب القط وهي تجلس جلسة تركية على الكنبة وتترك رماد السجائر يسقط على الأرض. أخرج الروائي كراسته المربعة الصغيرة من الحقيبة وكتب مع بزوغ أول إشراقات الصباح أن برودة "ميه" يكتنفها شيء عار للغاية.

ربما تكون "ميه" قد شعرت بالتملق، لأنها ابتسمت، وهو ما دفعه أن يكتب مؤكداً على أن شعورها بذاتها وإحساسها بالرضا عن نفسها يتفق مع غرورها. كتب أن كل شيء على "ميه" كان متسخًا. تصور شهوتها شهوة ذكورية، شهوة من تلك التي تنكسر مباشرة بعد الذروة مما يجعلها لا ترغب في الاقتراب من الجسد الآخر بعد ذلك. وأنها ظلت تلك الطفلة

الصغيرة التي تزحف في الحديقة لكي تضع التراب والأحجار والديدان وفضلاتها الشخصية في فمها، تترقب في حذر دائماً أن تحدث معجزة ذات يوم. طفلة تفعل حركات كريهة بوجهها وتتمتم مع نفسها بكلمات قذرة. كان يرى أنها بذلك تتحد مع العالم، وأنها كانت تضع الخنافس في فمها لكي تتكلم معها. ولأنها لم يكن بإمكانها التكلم مع نفسها، فقد كانت تفتات على الرجال، وتذيبهم في سوائل جسدها، وتخفف رغبتها النهمة نحو الانصهار، على الأقل على مستوى اللحظة.

كانت حالمة، تماماً مثل الأشخاص الذين يبدون ظاهريًا بلا مشاعر. من هذا المنطلق كان الروائي أيضاً، حالماً مثلها. عندما تملكته فكرة أنه يمكنه أن يفهم غموضه الذاتي في شخص "ميه"، أراد أن يمسك يدها. عندها قال لها ثمة شيء أخرق، فتجهمت على إثره ملامح وجهها، وأخبرته أنها متعبة، ثم أبعدته عنها.

لم يحدث أبداً تقريباً من قبل أن خرج الروائي في صباح جهم كهذا الصباح . فمع الحراس الليليين، العائدين مهرولين إلى منازلهم، كان يركض ليعبر من أمام بائعات اللبن، وموزعي الجرائد، وعربات الترام، وعربات النقل، والسيارات، أما عن أحداث اليوم فكانت مزعجة للغاية، ومؤلمة، وبعيدة عنه كل البعد. في الأسابيع التي تلت هذا الحادث كان الروائي يتجنب صحبة "ميه". كان يجبر نفسه على الجلوس على المكتب في الصباح الباكر، ولكنه لم يكن يتمكن من التركيز، فكلما احتقر "ميه" وازدراها، زادت رغبته فيها واشتهاها.

وذات يوم وصلته دعوة من السفارة النمساوية، فالجمهورية التي نشأت حديثاً تريد إقامة حفل استقبال. لم يكن يرغب في الذهاب إلى فيلا السفارة، إلا أنه قام بهذا في النهاية، لكي يرى "ميه" في صحبة زوجها. فقد كان يعتقد أنه مما قد يطيب نفسه، أو هكذا كان يأمل على الأقل، أن يراها ويعايشها في معية رجل آخر كزوجة لا يمكنه الوصول إليها، مجرد ظاهرة برجوازية، غير جذابة، حتى ولو حاكت دور الزوجة فحسب.

كان الزمن في فيلا السفارة قد توقف. فلم يكلف أحد نفسه عناء التخلص من صورة الإمبراطور المخلوع. كان كل شيء كسابق عهده، فبدل الفراك وملابس السهرة تم تنظيفها وتلميعها، كما تم تبريد الشمبانيا. لم تستطع إذاً سنوات الديمقراطية التي كانت قد حلت بالبلاد أن تحدث فارقاً بالترف الدبلوماسي. وعلى الرغم من أن يوسف توروك، زوج "ميه"، لم يعد مسموحاً له بحمل لقبه النبيل، إلا أنهم هناك كانوا ينادونه دوماً "بالسيد الدوق". فعندما كان ينزل درجات السلم الرخامي ممسكاً في يده بباقة الزهور، كان خادمه الشخصي يرافقه دوماً، تماماً كما كان عليه الحال في الماضي.

ولكن "ميه" لم تحضر. توقع توروك، في لحظة من اللحظات النادرة التي يصير فيها الأمل معكوساً، أن يرى زوجته في صحبة الرواني، لهذا أتى بالزهور، ثم أضاف الرجل الهزيل في مرارة مؤكداً، أنه كان يريد من وراء هذا أن يبلغ "ميه"

رسالة أن عليها أن تهدأ وتقر مرة أخرى وأنها لابد وأن تكون راغبة في ألا يزعجها أحد. وأن "ميه" قد وصفت له (توروك) علاقتها بالتفصيل مع الروائي، وأنها خلال هذا الوصف وضعته في إطار مناسب بلا أدنى شك ، باعتباره رجلاً محترماً، ويتمتع بقدر كبير من الذكاء والمهارة.

وبينما كان توروك منهمكاً ومسترسلاً في حديثه المستفيض، لفت نظر الروائي، أن شعره كان طويلاً للغاية بحيث تجاوز أذنيه. لم يكن مظهر توروك غير المهندم شيئاً غريباً، بالنسبة له، بوصفه نبيلاً، إلا أنه يستدعي إلى الذهن صورة الموظف الذي لا يولي مظهره الخارجي أية اهتمام لازدرائه كل ما يتعلق بالجسد وذلك انطلاقاً من أسباب دينية. كما كان يتحدث بسرعة شديدة على كونه نبيلاً. كان يتكلم في بداية حديثه بصوت خفيض، ثم بدأ يعبر بيديه بأساليب همجية وكان لا يفلت نادلاً يمر أمامه، فما يكاد يرى أحدهم حتى يسارع بالتقاط شطيرة من شطائر الخبز، وكوب مليء بالشمبانيا.

على العكس تماماً مما قد توحي به مظاهر الأشياء، فإن "ميه" كانت تهتم بالحياة الزوجية في حد ذاتها اهتماماً حقيقيًا، وليس فقط بمجرد إثباتها على الورق. وقد اعترف توروك، بأنه لم يعد يستطع احتمال التعاسة التي يعيشها مع زوجته أكثر من ذلك. قام بتجفيف لحيته الصغيرة التي تشبه ذقن الماعز، وتنحنح استعداداً للكلام، ثم أكمل حديثه بنبرة وعظية قائلاً، إنه لا يولي النساء أدنى اهتمام، فهن يتكونّ من الكثير الكثير من الدهن والكثير الكثير من الطلبات. وأن "ميه" هي المرأة

الوحيدة التي تناسبه بشكل رائع، فهي الأخرى، كما قالت، لا تولي الرجال أدنى اهتمام، كما أنه كان هناك دائماً شيئاً ذكوريًا يختفي وراء أنوثتها الشابة.

كان ما طلبه توروك من الروائي في النهاية شيئاً مقيتاً للغاية، تماماً مثل ذلك التصور أن "ميه" أسلمت نفسها لهذا الرجل للأبد. فقد عرض عليه مالاً، في مقابل أن يتقصى قدر ما يستطيع أخبار "ميه"، وأن يمده بمعلومات وأدلة تمكنه من رفع دعوى زنا ضدها، ثم أضاف توروك في النهاية بشكل صادم، أنه لا يهمه البتة عما إذا أمده الروائي بهذه الأدلة عن طريق خبرته الشخصية، أو عن طريق ملاحظات الآخرين.

في الصباح التالي زادت صورة توروك وحشية في مخيلة الروائي. من ناحية أخرى كان هذا هو ما جعل مشاعره تجاه "ميه"، تتأجج من جديد، فقد كان يشعر بدافع قوى بداخله لا يمكن مقاومته، أن يقتحم بيت الموسيقي ليوضح "لميه" ثباته والتزامه بموقفه.

لكن الشك داهمه وهو في طريقه إليها. ربما لم تلاحظ "ميه" على الإطلاق إحساسه بالمهانة، وربما كان طلب توروك ما هو إلا جزء من لعبة وضيعة. فالأشخاص الذين لا قلب لهم كانوا يوماً ما أشخاصاً يتميزون بالحساسية الشديدة، يسهل جرحهم، وهو أفضل من يعلم هذه الحقيقة، فلقد عانى شخصيًا من هذا الجحيم، الذي يتربص به كامناً في أشد زوايا عقله الخلفية إظلاماً، والذي لا يعني بالنسبة له إلا شيئاً واحداً، وهو أن النشوة تكمن في النصر، في الظفر، في القسوة والوحشية.

وأخيراً لا يمكنه أن يتصور نفسه وهو يدلي "لميه" باعترافات، قام هو بنسج أساسها من مخيلته.

لم تعد أصابعه تطيعه، لكنها قامت بالضغط على الجرس الموجود بجوار باب المنزل، ففتحت له الخادمة الباب، وصحبته إلى حجرة الضيوف. من مكان ما بجوار الحجرة سمع عزفاً حماسيًا على البيانو. هنا، في نور النهار، ظن الرواني أنه عاد مرة أخرى إلى إحدى قاعات الدرس. لمح امرأة ترتدي ملابس الخروج، تدير له ظهرها. بدا للرواني، أن هذه المرأة المجهولة قد أخلت "ميه" لتوها من حضنها، أو أنه خيل له أن "ميه" كانت تربط عباءتها الحريرية التي تصل إلى الأرض، وأن شفتيها لا زالتا مبللتين من أثر قبلة. هنا نبحت الكلبة البولدوج، ولكنها سرعان ما هدأت ثانية عندما سمعت نداء "ميه" لها، وكأنها أرادت أن تصرف الأذهان عن أمر مؤلم، خيل له أن يد المرأة الأخرى كانت على فخذها.

أو ربما يكون قد أصابه هو هذا الدوار ثانية بشكل فجائي، وهو الدوار الذي عجز الأطباء عن إيجاد تفسير له. قدمت له "ميه" أختها. ثم أضافت بابتسامة تحمل في طياتها أكثر من معنى، أن الرواني يحيا حياة لا تدنسها الرذائل.هنا شعر بأنه بلا قيمة، وبدا له ولعه الروحي وغير الروحي مجرد هراء سخيف. وبينما كانت "ميه" تنادي على الخادمة لإعداد القهوة، كانت أختها قد بدأت في التحدث معه. عندما ذهبت "ميه" للغرفة المجاورة على إثر نداء الموسيقيّ لها، بدأت أختها تحكي عن زواج "ميه" الصوري بالموسيقيّ، كما لو كانت

تحاول أن تقنع الروائي بخطأ ما قد يعتمل في مخيلته. كان ما يرغب فيه الموسيقيّ أولاً وقبل أى شيء آخر هو أن تكون "ميه" إلى جواره، وهو يتمرن، ثم تقوم هي بعزف مقطوعات صعبة وغير معتادة لا يحتاجها في أى من حفلاته الموسيقية.

كانت تلك الشقراء المترفة قد أعطت الانطباع عنها بأنها شخصية لا يهزها أي شيء. فهى ليست بلا جاذبية، ولكنها ضخمة الجسم وثقيلة الظل بعض الشيء، كأنها صاحبة حانة ذات آراء ثابتة لا تتغير فيما يتعلق بالارتباط بالأرض، اعتادت على الملاحظات الصفيقة، بينما هي على الأحرى لا تلقى بالاً لذلك. قاطعها الروائي قائلاً، إن الدوق توروك يلح في طلب الطلاق.

أوضحت له، أن "ميه" لا تعتمد على ثروة زوجها، أو على نقود معجبيها أو عاشقيها. فالثروة والشغف والشهرة لا تعني "لميه" شيئاً على الإطلاق. بالطبع ما كان الرجال ليضنوا بإمطارها بالهدايا، إلا أن الخديوي السابق ضمن لها استقلاليتها، الحاكم الذي يعيش في المنفى، يحول لها معاشاً سنويًّا. الحياة الملكية كما خبرها الروائي وكما استشعرها وهي تتخلله، عبارة عن حياة طفيلية، تعتمد على الأسرار، أسرار يمكن الإلماح لها، ولكن لا يمكن الإفصاح عنها أو البوح بها. وهي ذات الأسرار التي ما كان لتلك الحياة الملكية أن تكون كما كانت بدونها، حياة كتلك التي كانت تلوح له في مخيلته دائماً.

بعد لحظة أوضحت له الأخت عبء علاقته بها: "فميه" تريد أن تفعل كما يفعل، وأن تهب نفسها كلية للغة، لهذا الجسد المتكون من الأفكار والمشاعر، فهي مثله تشعر بأنها تخضع لقوانين عليا. فقد ظلت ملكة، كما استمر في داخله جوهر الروائي، سواء مارس الكتابة أم لم يمارسها. عندما كانت تعترف للإخصائي النفسي، بأنها ليست ممن يتنازلون، وأنها لا تصلح لحياة التقشف، كانت تلمس هذا الجوهر النبيل بداخلها. الصيام لعامة الناس. التعامل الخالي من الهموم مع الحياة، والذي لا يخلو على الرغم من ذلك من صعوبة مراسها، هو ما يناسب كيان ملكة. أما عن الحاجة الماسة للسجائر فهي تتطلب نوعاً من أنواع التفسير، أكثر مما تحتاج إلى إشباع، "فميه"، كما تقول أختها، تدخن بشكل مفرط، غير عابئة بمشاعر الغثيان والدوار التي تنتابها، كما لو كانت تريد أن توضح لأوعيتها الدموية كينونتها الملكية، فهي تدخن غضباً من تقدمها في السن، ومن المرض، ومن الموت.

من هذا اليوم فصاعداً بدأ الروائي يشعر بتقارب في السمات الشخصية بينه وبين "ميه"، وبنوع من التوافق الداخلي، برغبة في ممارسة زنا المحارم، تريد أن تعبر عن نفسها. تدفقت طاقته الذكورية على الورق، بينما تركت "ميه" جسدها لأهواء الآخرين. يخطون عليه ما يشاؤون. كان كلاهما غير كامل، ولكنهما وضعا الكمال هدفاً نصب أعينهما. كانت أختها تشبه زوجته، شيء ملحق بالمنزل، اعتاد عليه المرء.

تخيل الروائي أن علاقته "بميه" علاقة روائية رائعة. ولكنه عندما قابلها ثانية بمقهى بريستول، لم يتعد الأمر بينهما أكثر من التحية. ابتسم كلاهما ليعاودا الصمت بعد ذلك بقليل. كان لابد أن تشعر كما يشعر، كانت أصابعها رطبة عندما سلمت عليه، واقتربت منه، ومضت معه نحو المائدة وهي تسير معه جنباً إلى جنب، كانت تتصرف بعصبية وبشكل غير لائق، ضحكت في نفس اللحظة التي ضحك فيها. ولأنه لم يخطر بباله شيء يمكن أن يقوله لها، لأنه كان يخشى أن يقول لها شيئاً خاطئاً، فقد لزم الصمت، كما لزمت الصمت هي الأخرى.

الآن صار مثل هذا الموقف التعس قائماً وموجوداً بينهما. كتب في دفتر مؤلفاته أن نرسيس وإيكو لا يمكن أن يكون قد عانى أحدهما من الآخر. فنرسيس هو الصامت أبداً، لأنه لا يستطع إلا أن يحب نفسه، أما إيكو، تلك الحورية الفاتنة، فقد سرقت منها أم الأنية لغتها، وصار من قدرها أن ترتدد فقط عبارات الآخرين كالببغاء، وإزاء مثل هذه الحظوظ السيئة ليس هناك مفر، ولأن إيكو أحبت نرسيس فإنه عندما كان يقول لها: تعال! كانت ترد عليه قائلة: تعال! وعندما كان يسألها: لماذا تتجنبينني؟ كانت ترد عليه قائلة: لماذا تتجنبينني؟

مهما علم الروائي عن "ميه" فإنه بعد لا يعلم إلا القليل عنها، إلا أن هذا الذي يعلمه كان أكثر من اللازم. ربما كانت أفكاره عبارة عن توسلات وتعويذات ليس إلا، فكل شيء صار منحازاً لوجهة نظر واحدة، ولذا، ولأنهما تحديداً متشابهان في

أعماقهما، فقد ساد بينهما خجل وخوف كبيران. في لحظة لا يكون لديهما شيئاً ليقولاه، وفي اللحظة التالية يشعر أنهما أصبحا قلباً واحداً وروحاً واحدة، ولذا كان يري أنه لا يجوز لهما أن يقتربا من بعضهما البعض.

كان يقابلها كل ليلة في مقهى بريستول. كان مأخوذاً بها بشدة، لدرجة أنه لم يلتفت كيف أن زوجته تقبلت رحلاته في صمت تام. كانت "ميه" تغير عشاقها على فترات زمنية قصيرة دائماً، ودائماً ما تكون في موضع ما بالقرب منه، تحتضن عشاقها بشكل لعوب، وتداعبهم في مؤخرة أعناقهم. في كل مرة كان الروائي يشعر بأن شرها يمزق جسده كل التمزيق. كان يشعر بالبؤس عندما تخرج من الباب الدوار إلى الحديقة الأمامية وهي تحتضن أحد عشاقها، ثم ترميه بنظرة قبل أن تختفي في ظلام الليل، فيهرول خلفها في الطرقات المظلمة يائساً، ويتعثر في بيته، ويوقظ زوجته، ويحشد نفسه إلى جوارها، فتدرك من ارتباكه وذهوله شكل معذبته، وعطرها، وصوتها.

عندما يتوغل الليل، وتكون "ميه" في أحضان رجل آخر، يكون الروائي في مكتبه غارقاً في أفكاره وقد بدأ في الكتابة، في حالة تشبه فقدان الوعي، عن أكثر أحلامه برية، يكتب عن ثيران شابة في بدء نضوجها الذكوري، وكيف تشم هذه الثيران رائحة إحدى البقرات، فتروق لها هذه الرائحة لأنها تستدعي لها رائحة أمهاتها، وتعكف على هذا فترة طويلة،

تصاحبها متعة اختبار هذه الرائحة، تماماً كما يتذوق شخص ما كنه سر من الأسرار. كتب أن أحد الشعراء وجد نفسه في حالة مشابهة من الملكية الحصرية لذلك الجنس الأنثوي، تماماً مثل هذه الثيران، وقال أحد الكلاب بإنسانية لمحبوبته "لم يفتن أن بك شبقًا وأنك ترغبين في المعاشرة، فردت عليه قائلة، أنا لا أريد أن أدعي أنك لست مناسباً لي.

ثم حدث ما حدث على الأريكة من الاتكاء والنوم على بعضهما البعض، والقبلة فوق الركبة، ثم إذا بها تقول ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟ اللمسات التي تصير شيئاً فشيئاً أكثر جرأة، ثم أخيراً الاقتحام الذي تمليه الغريزة، كما يعلم الكلب كذلك متى يصير الأمر جاداً ويأتي وقت الاحتدام، ويحدد لحظة الانتقال، ولحظة الذروة التالية، ثم يزداد على هذا في مخيلة الروائي ويتحد معه مستوى الأماني عند البشر، شيء أكثر سموا من الناحية الروحية، مبدأ يُظهر ويُخفي، يمنح ويسلب، يقهر ويتسامح، يفكر ويشعر، حالة تأرجح ما بين الداخل والخارج، ما بين الصعب والسهل.

صار ملفه يزداد مع كل ليلة امتلاءً، كان يدون حبه السري ومعانقاته التخيلية مع "ميه"، ويدون غرابة أطوارها وبذخها وإسرافها المفرط. ولكنه ما لبث أن بدأ يتلقى أخبار نزهاتها ولقاءاتها الليلية مجرداً من الإحساس، وكان قد وطن نفسه على أنها ستأخذ مكانها في الأمسية التالية بجواره في المقهى وفي الليل المتأخر. في مشاهده الأدبية كان يسجل الرجال

الفرسان الذين تعرفهم "ميه" باعتبارهم أحصنة جر، هؤلاء السادة الذين يكونون دائماً من المرفهين الأثرياء، سياسيين وفنانين ومثقفين ورجال أعمال. لم يكن أمره مختلفاً كثيراً عن أمر صديقه، الإخصائي النفسي، معها، الذي كان يرى أنه بعد علاقة كل هؤلاء الرجال المهمين معها، كانت تهجرهم وتتركهم مبلبلين ومشوشي الذهن.

بذلك أصبحت "ميه" مخلوقاً من إبداع الروائي، فلقد كانت مادته وإلهامه. بينما كانت أختها تدون مذكراتها، كانت بعض التلميحات والإشارات كافية بالنسبة له كي يستطيع أن يتخيل، كيف خرجت "ميه" إلى العالم الحر بعد طلاقها من الخديوي، وبعد أن سجنت لمدة اثني عشر عاماً في سجن الحرملك، وكيف شعرت عندئذ بأنها ليست حرة إلى أقصى حد ممكن، وكيف أنها لم تستطع أن تجد طريقها في الحياة بعد أن صارت بلا قناع، كل ما شعرت به كان الوحدة، وكيف أنها كلما فكرت في الحياة الحرة، فكرت بشكل تلقائي في عضلاتها المتوترة المتعبة. وكيف أن كل امرأة غير محجبة كانت تمثل بالنسبة لها نوعاً من أنواع التحذير: لا تنظري خلفك أبداً! وكيف كانت تسير على شاطئ القسطنطينية، ولأول مرة دون حراسة خادمها المخصي، تحدق في المهاجرين الروس. الذين كانوا قد افتتحوا مطعماً، ليبيعوا فيه النبيذ المثلج والكافيار، للفقراء من مستأجري المنازل متناهية الصغر، وعربات القطارات التي يقضون فيها عطلة نهاية الأسبوع، عربات قطار مهملة بلا عجلات، وحجرتان صغيرتان ضيقتان،

وشرفة مسقفة، جملوها بالنباتات الخضراء. وكيف كانت "ميه" ترقد على هذا الشاطئ راضية، لا ينقصها شيء وبلا أية أمنيات أو رجاء في شيء ، تحس بالرمال الساخنة فوقها، وتستشعر هدير البحر وهو يسري فيها وهي بلا حراك، كان كل شيء خاضعاً لحواسها، كانت تريد أن تنهض وتنفض عنها هذه الرمال الساخنة كحيوان قوي.

في تلك الأسابيع أهمل الرواني زوجته تماماً، حتى أنه لم يلحظ أنها أصبحت تغادر المنزل بمعدل أكثر من المعتاد. عندما أعربت الزوجة ذات مرة عن عدم رضاها عن الوضع البارد الذي آل إليه زواجهما، برره بأنه يرغب في أن يصور في مسرحيته الطريق الذي يبدأ بالتوجه والانجذاب الداخلي العميق، وينتهي بسبب صدفة صغيرة إلى الخيانة.
سمعته ولزمت الصمت. كان لا بد أن يلفت نظره، أن "ميه" أصبحت أكثر بعداً عنه من ذي قبل، بينما بدأت زوجته على عكسها تتقبل كل ما يقوله بمودة ولطف. استحوذ تعثر واضطراب حركته البندولية بين المنزل والمقهى، "ميه" وزوجته، الأحلام والملفات، الكتابة والحياة، تماماً على اهتمامه. في هذه الفترة كان قد اعتاد مكانه الليلي إلى جوار النافذة بالمقهى، والبسط والستائر البالية، والأرضية ذات الصرير، حتى أصبحوا بالنسبة له مثل الكرسي ذي الذراعين الكامن بحجرة معيشته. كان يدون ملاحظاته عن عشاق "ميه" المتغيرين باستمرار بدقة شديدة، ولكن بلا مبالاة، تماماً كما لو

كان يصف فساتينها أو سراويلها. على الجانب الآخر اكتشف أن الاستماع للراديو في حجرته شيء ممتع، كما جذب انتباهه، أنه يشتهي بشدة التحدث مع فخذي زوجته المستديرين، ووجنتيها العريضتين، وطباعها اللطيفة.

هذا التوجه الجديد في خيالاته وأحلامه الهائمة جعله يحلق بعيداً في كتاباته. كانت الملاحظة التي ألقت بها له زوجته في صباح أحد أيام الآحاد، بمثابة الصاعقة. لم يتضح، إذا ما كانت قد عرفت هذه التحولات الجديدة من "ميه" شخصياً أم مما يتم تناقله من أحاديث الصالونات المثيرة. ما قالته، مس أعمق نقطة في محرماته، وجرحه بقدر لا يمكنه احتماله. فعشيق "ميه" الجديد كان ذلك الكاتب المسرحي، الذي لم تكن شخصياته المسرحية تحرك في الروائي أدنى قدر من الإحساس ذلك الرجل الذي يبالغ الجميع في وصفه ومديحه ويعطونه أكثر من قدره.

تساءل "هل يساعدها في الكتابة؟"، "نعم، فميه توروك تكتب مسرحيات إذاعية".

لم يعد الأمر في هذا الفن الإذاعي الجديد، كما قالت الزوجة، عبارة عن أديب يرغب في أن يصبح "روحاً للكل"، بل صار الأديب يرغب في أن يفقد ذاته بين الأصوات العديدة التي يتم نقلها إلى كل حجرة عبر الأثير.

لا يمكن للموت أن يأتي بشكل أسوأ من ذلك، فهو أقل إيلاماً من دوار هذا المخاض الذي يمر به، بينما تراجعت اللغة في

هذه الأثناء. أطل على الروائي مشهد من حياته كان قد ترك التفكير فيه تماماً. فقد سرق وهو طفل أغلى حلي أمه ومجوهراتها، تلك التي كانت لا تعرف الحب، سرقها قطعة قطعة، رويداً رويداً، من صندوق مجوهراتها، واتُهمت الخادمة بالطبع بالسرقة، ولكنه، لكي يسمح له بتناول عشائه الرباني الأول، كان عليه أن يعترف للكاهن بخطاياه، إلا أن الكاهن فضح سره - مخالفاً كافة التأكيدات بعدم فضح أية أسرار له- ولم يفضح هذا السر لله فقط، بل ولأبيه أيضاً، الذي أجبره أن يخرج معه إلى الحديقة، ويكشف له عن مكان المخبوءات. كان يرى مراراً وتكراراً تلك الخطوات في الحشائش العالية، التي كانت تبدو له بلا نهاية أبداً، ويد والده تلتف حول عنقه، كما تذكر أنه منذ تلك الأثناء صار من السهل عليه أن يتصور في مخيلته أنه يقتل شخصاً ما، وأن أفكار الانتحار لم تفارقه منذ ذلك الوقت على الإطلاق.

في عصر ذلك اليوم جرى الروائي على مدى ساعات خلال المدينة، وزار صديقه الإخصائي النفسي، ووجد عنده أخت "ميه"، التي لم يعد الكاتب المسرحي يطيق أفعالها أكثر من ذلك. كانت متكئة على كتف الإخصائي النفسي خائرة القوى، وبدا الاثنان كما لو كانا شخصيتين غريبتي الأطوار. هذا الشبح، الذي يظهر دوماً، كلما منحت "ميه" نفسها للآخرين، هو شبح هذين المكروبين، وخوفهما من الوحدة.

مر الروائي متسللاً بالمساء من أمام مقهى بريستول، ورأى "ميه" عبر النافذة بصحبة الكاتب المسرحي. كان حكمه على

هذا الرجل أنه حيواني بدائي، كما كان يبدو كالعائدين من الموت بسبب شحوبه الشديد، كانت الطريقة التي صفف بها شعره النابت من جبهته، وعظم صدغيه العريضين، قد جعلاه يبدو أكثر اكتنازا مما هو عليه أصلاً. وفي اللحظة التالية على ذلك بدا كل من الكاتب المسرحي و"ميه" متشابهين، كانا كأنهما قد صارا كلاهما نرسيس، الذي نظر إلى صورته بالمرآة وتجمد، عاد الروائي إلى شقته ثائراً، ودس مسودات مسرحيته في صندوق من الكرتون، وذهب بسيارات أجرة إلى بحيرة "فانزيه"، جلس القرفصاء على شاطئ البحيرة ومزق الفصول والمشاهد، ورمى قصاصاتها في الماء.

شعر بعدها أنه تحرر من عبء ثقيل وأنه صار أكثر خفة وارتياحاً، كان يشعر أنه عندما يكتب يمكنه أن يصنع حياة بالكتابة ويسحبها وقتما يشاء بالكامل، وأن يتجمد في الزمن المؤقت، وأن يجعل كل ما هو جاد غير جاد كان يمكنه أن ينهض، ويركض بالليل، ويجعل من الحياة مسرحية هزلية. كان يمكنه أن يستخدم كل شيء في الكتابة، حتى أسوأ تعاساته وأكثر الأحداث إيلاماً، بل إنه اعتبر نفسه وكافة نقاط ضعفه أداة لخطته.

كتب أنه في الصباح التالي، أراد بالفعل أن يبدأ كتابة مسرحية جديدة، تصور الحياة على أنها مسودة لخطة صارت غبية، تصطبغ بصبغة رجال مهمين، وصلوا جميعاً إلى ما وصلوا إليه باتباع طرق ماكرة، وأشخاص من أصحاب الوظائف والمناصب يمكن تغييرهم واستبدالهم في عالم لا يزيد على

كونه تجارة ونمطاً متوسطاً من أنماط الحياة تم التخطيط له مسبقاً ليكون على ما هو عليه وإذا ما عَلق بعض الحالمين في هذه الحياة البائسة، التي هي في حقيقتها لاحياة، فعندئذ يصير العالم قسوة بالغة تقود كل هؤلاء الرجال، ويخرج من بينهم كاذب يتلاعب باللغة. تبدأ المسرحية بمقابلة تلك المديرة لأحد التجار الكبار، الذي يعرض عليها الزواج، ولأنها رفضت عرضه هددها بإطلاق النار عليها. لم يكن هناك شيء في تلك المرأة العنيفة في حد ذاتها يميزها عن غيرها، بل كانت في الواقع عبارة عن مزيج مؤلف من نظرات المعجبين بها، وكانت تمسك لهم بمرآة تضعها أمام أنوفهم فيتعرفوا على أنفسهم ثانية من خلالها.

كانت تداهنهم، وتضللهم بادعائها الرغبة في المعرفة، وتعطي كلاً منهم الإحساس بأنه متفرد تماماً، على الرغم من أنه واضح تماماً لأى إنسان مدى سخف تلك الحياة التي يعيشها هذا الرجل الذي تداهنه أو ذاك. كانت بالأساس تتصنع ما تقول بشكل مبتذل، وتكرر بشكل ببغائي كل ما يمكن أن يفكر فيه أي عالم، أو إخصائي نفسي، أو موسيقي أو تاجر، ثم تعمي كلاً منهم بما لديها من نصف علم ونصف معرفة. كانت تجعل الرجال تابعين لها وتوضح لهم، أنهم لا شيء دون معرفتهم لمنافسيهم. كانت تهيم بما في علم النفس من حكم وهي في أحضان الموسيقي، وتجبر الإخصائي النفسي على الحديث في السياسة، والتاجر في الفن، والعالم في المال.

لم تكن هذه المسرحية الهزلية عن التجارة كافية بالنسبة للرواني، لذا مزق ملاحظاته مرة أخرى، وأعاد تشكيل تلك المرأة القاسية، وهي الشخصية النسائية الرئيسية بالمسرحية، على نموذج الأخت، وجعل من "ميه" شخصية غير محورية بالمسرحية، مجرد صديقة هستيرية، كل ما يثيرها، هو كيف يعرق الأشخاص الآخرون بسهولة بالغة، كما أظهرها في صورة شهوانية للغاية.

كان نادراً ما يترك مكتبه، وكان في الليل يرقد بجانب زوجته. مر عام على معرفته "بميه"، وشهر على آخر مرة رآها فيها. اندملت جراحه، وعندما أخبرته زوجته ذات مرة أنها تقابل "ميه" بانتظام، تفهم الموضوع. قالت زوجته، إن "ماي توروك" تتحرج من أن تقيم علاقات مع أزواج صديقاتها. أما عن الكاتب المسرحي، فقالت إنه على الرغم من كونه لا يخشى الضباب والغموض، إلا أنه كان يضيئه بروح ألمانية سليمة. لم يسأل الرواني عن أخبار "ميه"، وكانت كلما تحدثت زوجته عنها، أنصت إليها بغير تركيز.

إلا أنه بعد أن كان يعتزم، بعد مرور بضعة سنوات، أن يعطي شخصيات رواياته صفات تلك المرأة، التي لم تشأ أن تُكن له أية مشاعر على الإطلاق. لذا فإنه عندما عاد لروايته الكبرى مرة أخرى، كتب آنذاك قائلاً، إن كل شيء تحت الشمس له حجمه، ووزنه، وثمنه، وهدفه، ومعالمه الحادة التي تميزه، والأشخاص الذين يملكوه، إلا أنه على الرغم من ذلك يمكن أن يكون شيئاً آخر مختلفاً.

فيليب ج.

كانت جريدة "جراتسر تاجيزبوست"، وهي جريدة تصدر في إحدى المقاطعات النمساوية، فقط التي نشرت خبر وفاتها: توفيت الأميرة جاويدان في هدوء في الخامس من أغسطس من عام 1968 عن عمر يناهز 92 عاماً وذلك بعد معاناة قصيرة مع المرض. بكل الحب والامتنان: فيليب ج.

كان قد انقضى عامان تقريباً. عندما بدأ فيليب ج. في الكتابة عن صديقته، كان أقرباء جاويدان هانم يريدون أن يمحوا من الوجود أى ذكرى "للخديوة"، كما كانوا يحلو لهم أن يطلقوا عليها مستهزئين ومستهينين. لكن فيليب ج. كان قد اعتزم أن يصور حياة هذه المرأة الاستثنائية. كان يرغب في بناء تذكار لها، وذلك كي يخفف في نهاية الأمر من الآلام التي يعانيها، ولكي يجد وسيلة يجابه بها الأيام التي بدأ يعاني من وحشتها منذ وفاة جاويدان هانم. كان العزاء يمثل بالنسبة له طريقة من طرق الفهم. كان يريد أن يتصور كم تكون الحياة ثرية، تحديداً عندما يهدرها شخص ما بلا ثمن ولا معنى.

فيليب هو رفيق حياتها لأكثر من خمسة وعشرين عاماً. كانت لديه بعض المستندات، وعدد قليل من الصور الفوتوغرافية وكتبها، ونوتاتها الموسيقية، ولوحاتها. أما قصصها أيام كانت بالبلاط الملكي بالقاهرة، عندما كانت زوجة لآخر خديوي لمصر، فقد عرفها من إسماعيل، خادمها السابق كما كان يعرف كذلك الشائعات الأخرى حول ماضيها. وبسبب عمليات التعتيم الكثيرة على الحقائق، التي لم تكن جاويدان هانم نفسها ببعيدة عنها، كان لزاماً عليه أن يعتمد على حاسته الاستخبارية للوصول إلى الخفايا والأسرار المحرفة.

بعد عدة فقرات، لاحظ فيليب أنه يقصد نفسه بهذه الكلمات التي تخطها يداه على الورق. كان يشعر بأنه قد صار بعيداً بالفعل عن عالم الأحياء، فقام بوضع القلم الحبر من يده، وذهب إلى نحات شواهد القبور، وطلب منه وضع اسمه على شاهد القبر تحت اسم المتوفاة. وعلى الرغم من أنه كان يبلغ من العمر ستين عاماً فقط ويتمتع بصحة جيدة، إلا أنه كان يشعر بأنه لا تبعده عن الحياة الأبدية سوى بضع لحظات، تلك الحياة التي سبقته إليها امرأته الحبيبة.

عندما عاد إلى مكتبه، أدرك أن الكتابة تعني بالنسبة له حالة حلم، يتمكن فيها من أن يرى كل شيء من منظور عين الطائر. وفي أثناء ذلك خطر على باله أحد المشاهد التي تكررت في أحلامه عدة مرات في السنتين الأخيرتين. كان المشهد يدمج بين حدثين لا يمكن جمعهما معاً. بدا فيه كما لو أن الحياة قد دبت في إحدى اللوحات فتحرك جزء منها، وفيه

يرقد جسد جاويدان هانم في مرضه الأخير وهو يحتضر ممدداً على الفراش، بينما ينقل التلفاز إلى جواره في بث حي أول هبوط للإنسان على سطح القمر.

إلا أن رواد الفضاء هبطوا بالفعل على سطح القمر لأول مرة بعد عام كامل من وفاة جاويدان هانم. ترتعش شاشة التلفاز باللونين الأبيض والأسود. على هذه اللوحة الخاطئة، هذا المشهد يماثل صورة صغيرة لأحد القديسين من تلك الصور النمطية المبتذلة ماسخة الطعم، هنا يعبر أحد رواد الفضاء بخطوات تشبه خطوات الرجل الآلي فوق قناع موت جاويدان هانم. وجد فيليب نفسه يتذكر أجواء الحِكم المقدسة وعرافات الغيب، تلك الأجواء التي تجسدها له جاويدان هانم. فقبل وفاتها بأسابيع قليلة، حدث شيء لا يمكن وصفه، ووجد نفسه مضطراً للكتابة عنه في هذا السياق. كان شيئاً يفوق قدرات البشر تميزت به هذه المرأة، أعرب عن نفسه في قدرها الشخصي، أكثر مما أعرب عن نفسه في القدرات الاستبصارية الخارقة التي كانت تتمتع بها.

لم يكن مسموحاً لفيليب أن يردد شيئاً من تلك الأشياء التي من شأنها أن تشنف آذانها. فقد كانت ترى أن أي محاولة لتجميل حياتها يمكن أن تخلي إرادتها الحرة التي احتفظت بها لما يقرب من قرن كامل. من كل معالمها وتجعلها بلا معنى. إنه يحتاج كل ما هو مظلم وخاطئ، وكاذب، ليصور حياة امرأة تعد أسماؤها المختلفة لغزاً في حد ذاتها. إلا أن فيليب أيضاً في حاجة كذلك إلى أن يعترف بأن الظلام يجذبه بشدة. تدافعت

في ذاكرته كل الأحداث لتحيا في الوقت الحاضر: كتب قائلاً: بدأ كل شيء بقصة أسطورية!! وفي الوقت ذاته كان فيليب يدون ملاحظاته بعقل صارم، كان يختبر ويفحص كل شيء بدقة ولا يكف عن السؤال والاستعلام، كعالم، يحاول البحث في كنه الروح.

بدأ كل شيء بقصة أسطورية، بولادة جاويدان هانم على الجانب الأخر من المحيط الأطلسي، في ظروف مليئة بالتفاصيل المضطربة. هي نفسها كان يحلو لها أن تصف نفسها بالابنة الثالثة لدوق ودوقة "توروك فون تسيندرو". ولكن دفاتر أنساب النبلاء المعنية نصت على أنه لا توجد سوى ابنة واحدة لهذه العائلة هي التي تنتسب لها وتحمل لقبها النبيل. إلا أن زواج جاويدان هانم فيما بعد من أحد الرجال، الذي يحمل نفس اسم والدها وقيل إنه ابن عمه، كان هو السبب وراء الشكوك التي بدأت تثور حول هذه الأسرة، وبأن لديها ما تخفيه.

عندما كانت جاويدان هانم تُسأل عن هذا التضارب، كانت تشير دائماً إلى ما تمتعت به من حرية دخول قصرين نمساويين من قصور النبلاء. وعندما سُئلت عن سبب عدم ظهور أي من أقاربها معها، أو عن سبب عدم زيارتها لأملاكها، كانت تسرد قصة مولدها المتضاربة من جديد.

إذا ما كانت جاويدان هانم قد ولدت في فيلادلفيا عام 1877 باعتبارها الدوقة ماري توروك فون تسيندرو، وذلك بسبب صدفة حدثت بإحدى الرحلات (حيث قام أحد الأطباء

البيطربين بتوليد أمها، في أحد دور الضيافة الصغيرة) وأن أمها كانت بمفردها في هذه الرحلة لأن والديها النبيلين كانا قد انفصلا قبل عدة أشهر، وليس كما يزعم البعض، حيث كانت والدتها قد ذهبت إلى هناك لتعود بجديها من أمريكا إلى أوروبا، كما بدا الاحتمال ضعيفاً كذلك أن تكون والدتها قد تعرفت على والدها الجديد خلال هذه الرحلة في أمريكا وأحبته.

من الجائز أن يكون هذا العشيق هو والد جاويدان هانم الحقيقي. فقد كان هذا الرجل يعمل لدى توماس أديسون، مخترع المصباح الكهربي ومؤسس إمبراطورية من الشركات الكبرى، وممثلاً لشركاته في أوروبا. كان يتمتع كذلك بسمات وملكات أسطورية: فلقد تمكن من ترويج اختراع الهاتف، وهو اختراع أديسون المسجلة براءته باسمه، وجعله شائعاً بين الناس في العالم القديم أي في أوروبا، كما قيل إن جاويدان هانم كانت تعيش، وهي بنت عام واحد، بالسرادق الأمريكي في جناح أبيها الجديد بجوار المعرض الباريسي العالمي. وفيما بعد تزوج هذا الرجل من حبيبته النبيلة في "ويستمينستر". هذه اللحظة، كما علم فيليب، تعد لحظة متكررة في حياة جاويدان هانم: التطبيع بأثر رجعي، المحاولة المؤلمة لتفادي الفضائح، وإعطاء الأحداث صبغة برجوازية مقبولة.

كما أنه من المحتمل أيضاً ألا يكون الدوق توروك قد مثل دور الزوج المخدوع فحسب، بل من الجائز أن يكون هو الأب

الفعلي لجاويدان هانم (في هذه الحالة لن تكون الدوقة هي والدتها). في جميع الحالات لم تتوقف الشائعات أبداً بأن جاويدان هانم لم تكن بأمريكا آنذاك (حيث كانت تقيم الدوقة وعشيقها يقيمان بشكل مؤكد عام 1877)، ولكنها ولدت لإحدى المشرفات على منزل الأسرة في النمسا. في هذه الحالة ستكون مشرفة المنزل تلك هي في الحقيقة عشيقة الدوق (الذي نسب ابنته غير الشرعية التي لا تنتسب لطبقته والتي جاءت من علاقته بهذه المرأة لزوجته الخائنة). ولابد أن هذه المرأة كانت شديدة الجاذبية، وهذا ما يفسر سر جمال جاويدان هانم الخلاب.

لم يتضح لفيليب أبداً من كان فعلاً والد جاويدان هانم أو والدتها مع كل هذا التشابك والتداخل في هذا المرقص الغرامي المجنون، كما يروى أيضاً أنها قضت جزءًا من حياتها متنقلة مع أمها في أماكن مختلفة من أوروبا، والجزء الآخر قضته في قصر أحد أبناء عمومتها بالقرب من مدينة "جراتس" منتظرة عودة والديها.

حاول فيليب الربط بين القصص المتضاربة التي تدور حول فترة شبابها، فالقهر والجبر والإكراه والحربات غير العادية كلهم جميعاً تجمعوا معاً ليكونوا حياتها. أغلب الظن أن جاويدان هانم حظيت بتعلم اللغات والتاريخ والموسيقى على أيدي معلمين خصوصين، كما تمكنت وهي في سن الخامسة عشرة من الحصول على منزل صغير خاص بها في مدينة "جراتس".

غلب على فيليب الشك في أن جاويدان هانم لابد أن تكون قد دفعت ثمن هذه الحرية عن طريق خدمات قدمتها على حساب طفولتها، أجبرتها عليها أمها (أيًا من كانت من الاثنتين أمها). وكثيراً ما دارت الشائعات حول أساليب القوادة التي تم تزويج جاويدان هانم عن طريقها لآخر خديوي حكم مصر. وتبعاً لهذه الشائعات فإن الأم كانت قد باعت الفتاة الصغيرة مقابل مبلغ محترم من المال للخديوي، الذي كان يدرس آنذاك في فيينا وأعجب بتلك المرأة الطفولية البرينة.

أما وصف هذه الشائعات لجاويدان هانم فقد كان على العكس من ذلك تماماً، كان رومانسيًا للغاية! وإسماعيل، خادمها المخصي بحرملك الخليفة، أقسم كذلك على وصفه لكيفية اللقاء الذي حدث مع الخيديوي، من أن "ماري توروك فون تسيندرو" (أى جاويدان هانم) كانت قد قامت بزيارة أخيها في فيينا، الذي كان يدرس كالخديوي في أكاديمية "الثيراسيانوم"، وأحبت الملك المستقبلي وتبعته إلى القاهرة.

أغلب الظن أنها كانت قد خلقت لنفسها هي وأخوها، صورة معينة عن والديهما، تطابق تلك التي تمنيا أن يكونا والداهما عليها بالفعل، الدوق والدوقة توروك (يجمعهما زواج سعيد) وقد أرسلا ولدهما، أى أخي جاويدان هانم، إلى فيينا كي يدرس وفقاً لتقاليد طبقتهم الاجتماعية في الأكاديمية الثانوية القيصرية، وهي معهد يتمتع بسمعة وشهرة عالمية جيدة، وكانت محل تقدير النبلاء آنذاك سواء كانوا أوروبيين أو

شرقيين. لم يشهد هذا المكان كيف تعلم الخديوي أن يكون رجلاً نبيلاً، عصرياً، حديث الفكر فحسب، ولكنه شهد أيضاً رغبة جاويدان هانم في أن يتم استقبالها فيه نظراً لأصلها العريق. لذا فإنها عندما شاركت في حكم مصر بعد عقد كامل من هذا التاريخ (على الرغم من كونها فعلت هذا من وراء ستار ولم يتعرف أحد عليها في هذا الإطار)، فإنها لم تحكمها باعتبارها ابنة زنا، بل باعتبارها امرأة ذات أصل نبيل خالص، هكذا كانت رسالتها.

ليس من قبيل المصادفة أن يحمل جميع الرجال الذين يحملون لقب "توروك" ممن عرفتهم جاويدان هانم في حياتها اسم "يوسف" (أبوها، وأخوها، وزوجها المسيحي الثاني): فيوسف، هذه الشخصية الإنجيلية التي عانت في صبر ...، ثم تأمل المصادفة: فالدوقة توروك كانت كذلك مثل جاويدان هانم تحمل اسم ماري.

ولكن الأمر ظل دوما غامضاً وبلا إجابة، عما إذا كانت جاويدان هانم قد أسيئ استغلالها في طفولتها نتيجة حاجة ماسة فاضحة أم بسبب البحث غير المحدود عن متع الحياة. حتى جاويدان هانم نفسها قامت بالتلميح لكلا الاحتمالين، ولكن لم يحدث أبداً أن أدانت أحداً على الإطلاق. فإذا ما أطلق أحد على ما حدث لها شذوذاً واغتصاباً للطفولة، فإنها كانت تتجاوز هذا الأمر سريعاً وتوضح أنها، باعتبارها طفلة العالم الجديد، كان قد كُفِل لها نوع جديد من الحرية، وأنها لم

تخضع في يوم من الأيام لأي نوع من أنواع الإكراه الديني المعتاد.

والحقيقة أنها لم يتم تعميدها ولم تنشأ طبقاً لتعاليم الديانة المسيحية، وقد حدث كل هذا من وراء واجهة أسرة كاثوليكية تحظى بالوجاهة الاجتماعية. كما أن أي محاولة لتجميل طفولتها كانت ستلتقي بسر صادم، فمن الواضح أن الأم كانت قد قدمت الفتاة الصغيرة لعدد كبير من رجال المجتمع. فإذا ما كانت جاويدان هانم ابنة مشرفة المنزل، فمن الواضح أنهم تعاملوا معها خلف أسوار القصر باعتبارها كياناً مستباحاً بلا ثمن، وفي هذه الحالة تكون قد صارت طوع رغبة هؤلاء الرجال من ذوي الشعور الرمادية باعتبارها مرتدة عن المسيحية. ولكن إذا ما كانت أمها الدوقة هي من قامت بدور القوادة لها، فسبب ذلك هو الفساد والتردي الأخلاقي، فالنبيلة الشبقة سافرت وراء عشيقها عبر أرجاء أوروبا، وأرادت أن تحقق مصالح اجتماعية لنفسها مستغلة في ذلك ابنتها اليانعة. (ما يخطر على بال فيليب الآن هو المثل القائل: يد واحدة لا تصفق)

وفي النهاية زوجت الأم (أيًا من كانت هذه الأم من المرأتين) الفتاة البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً لدبلوماسي سويدي. وهو الرجل الذي كانت بصحبته عندما قابلت الطالب الملكي القادم من الشرق.

بدأ الأمر عندما رآها الأمير (والذي سيصبح عما قريب خديوي، ونائب سلطان القسطنطينية، وحاكم أرض النيل) غير مرتاحة في حضور زوجها السويدي وكأنها مع الرجل الخاطئ، كما اكتشفت جاويدان هانم في عينيه الرماديتين المائلتين إلى الزرقة ضوء الشمس في بلاد النيل، وفي اليوم التالي على ذلك مباشرة بعثت له برسالة ملتهبة العاطفة. لقد كانت هي إذاً التي دفعت بنفسها لتستقر في رأس الحاكم الشاب، كي تتحرر من زوجها السويدي. كانت رحلتها إلى مصر هروباً من فيينا. فلقد تركت زوجها دون حتى أن تنوه له إلى أين هي ذاهبة. عندما لحقت بالخليفة في مصر، وجدت أنه متزوج وأب للعديد من الأطفال.

أما عن إقامتها سرًّا في الحرملك لمدة عشر سنوات، فلم تكن الشريعة الإسلامية وحدها هي السبب في ذلك. فجاويدان هانم، التي أطلق عليها الخديوي اسم زبيدة هانم، طوال الفترة التي كانت فيها محظية له، وجدت هناك الملجأ والخلاص من الزوج المسيحي، الذي ما كان ليترك غيره يسحب منه ضحيته طواعية أبداً.

الكذب والحقيقة تبادلا الأدوار في حياة هذه المرأة الشابة: وقد حماها الكذب أكثر مما أفادتها الحقائق. كانت الحقائق في أغلب الأحيان أكثر قسوة من إيلام الكذب؛ فما كان يدفعها للاشمئزاز من قبل، أصبح الآن يثيرها. فلم يعد محكوماً على جسدها بعد الآن أن يسلم نفسه للرجال في كل وقت، من الآن فصاعداً بدأ هو نفسه يطلب اللمسات ويتوق إليها. صارت

العاطفة الملتهبة باردة، شاهدت بنفسها دون أن تحرك ساكناً، كيف فقد جسدها السيطرة على نفسه، وأطلق العنان لجميع الخيالات السادية لكل الرجال الذين عرفتهم.

مدحت جاويدان هانم بإعجاب شديد وميل أصيل لديها فنون الإغواء السحرية التي كانت تؤديها إحدى النساء غير المؤمنات. كانت تزعم أن الأمر يتطلب الكثير من الموهبة، كي يكون المرء عاشقاً كبيراً، أكثر مما يتطلب إنجاب الأولاد لهذا العالم. وأننا إذا أردنا أن نعرف الحب بأنه المتعة والحنين، وأنه عملية عصبية مربكة، فهو لابد عندئذ أن يتطلب قدراً كبيراً من الاستقلالية والسيادة. فمنح الذات وفقدانها يتطلب قدراً كبيراً من الحيوية، كما لا يقدر على إعادة تقييم الأمور حسب هواه، سوى إنسان لديه الإحساس بالسيادة والاستقلالية، وهذا ما يسبب المتعة الجنسية.

كانت عندما تتكلم بهذا الشكل، تنتصر على كل نساء الحرملك، اللاتي أسلمن أنفسهن لسيدهن. تحولت جراحها لتصبح أقوى أسلحتها، وصارت العلاقة بين اللذة الجنسية وانعدام المشاعر عندها كالعلاقة بين الكذب والحقيقة. فالسيادة والاستقلالية بالنسبة لها تعني كل شيء، إلا أن ترضى بالأوضاع الوسطية؛ العاهرة كالملكة كلاهما سواء، أى شيء إلا أن تكون أمًّا، أو تحديداً أمًّا كأمها، تلك القوادة عديمة الرحمة. فالحياة الملكية لم تتطلب، حسب فهمها، أكثر من

التخلي عن الأولاد. فالمرأة العظيمة، نصف الإلهة، لا ينبغي أن يضيع عمرها في تربية أولادها. نمت الزهرة اليانعة وصارت نباتاً، إنساناً شهوانيًا أو حيواناً، صارت شيئاً أثيريًا.

ولد فيليب، بعدما كانت جاويدان هانم قد اعتنقت الإسلام وبعدما أصبحت زوجة لآخر خديوي لمصر. لذا فقد كان يحب أن يقدم نفسه باعتباره الطفل حديث الولادة الذي كانوا يحشرونه في كيس من الأكياس الضيقة التي يلف بها الأطفال حديثي الولادة، بينما كانت جاويدان هانم تتمدد في قميص نومها الحريري على الأريكة الملكية. منذ أن شبَّ فيليب ووعى الحياة من حوله وهو يتذكر أنه استطاع أن يدرك جسده عن طريق إدراكه لعيوبه. فقد كان يعاني من حساسية خفيفة، وبعض أزمات الربو التي تأتيه من وقت لآخر. وأثناء طفولته جاء إدراكه لأبعاد جسده مرتبطاً بالألم، عندما كان رأسه يصطدم بحافة الباب العلوية. ومنذ إصابته في الحرب صار يعتمد على العصا أثناء سيره، ويجر ساقه المتصلبة خلفه.

هاجر والد فيليب، الذي كان ضابطاً قيصريًا، إلى ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، وأسس في برلين مؤسسة تجارية. كان يؤمن هو وزوجته بأنه كما يرث الأبناء من الآباء شكل الأنف، والأرجل والأصابع، فإنهم يرثون أيضاً المواهب، والأخلاق، ونقاط الضعف، ولهذا فهي لا تتغير من جيل إلى جيل. لذا أوضح لأبنائه قبل دخولهم إلى المدرسة الثانوية، أن

مهمتهم أن ينجحوا في دراستهم بدرجات ضعيفة، وأن يعملوا على كسب أقواتهم من أعمال الإنشاءات.

بسبب مثل هذه المعطيات، فشل فيليب كما فشل إخوته من قبله، ووجد أباه نفسه في نهاية حياته دون تجارة ليورثها. عمل فيليب على مدى سنوات ككومبارس في مسرح برلين، واكتشف هناك جاذبية التمثيل وجاذبية النساء الأكبر سنًا منه. لم تعد تؤلمه حقيقة، أنه لا يحصل على أدوار إلا في المسارح الصغيرة. فلقد تعلم أن يكون متواضعاً، لأنه شاهد حسرة الممثلات كبيرات السن. فلا يوجد شخص متفرد بشكل مطلق، وكل من يؤمن بهذا يعاني دوما من نهم لا يشبع. لذا فإن فيليب كان يقدر بشدة تواضع الأشخاص قليلي الشأن وطريقتهم في تصريف أمورهم. كم كانت جاويدان هانم، تلك الشخصية الأسطورية، مختلفة.

استطرد قائلاً، مرة أخرى بدأ الأمر، عندما أقنع الخديوي عشيقته عام 1910 بتغيير اسمها (من زبيدة إلى جاويدان)، وبأن تعتنق الإسلام لتصبح زوجته. كان الخديوي يمر بأزمة كبيرة في ذلك الوقت، وبدا له زواجه من أوروبية - تدخل في سجل النبلاء تحت اسم الأميرة جاويدان هانم - مفيداً للغاية.

في عام 1908 سقط آخر سلاطين القسطنطينية، وصار نائبه لا يستطيع أن يستمر في حكم مصر إلا بموافقة الإنجليز ورضاهم. في الوقت ذاته كان الخديوي يعاني من ضغط شديد

بسبب حركة المعارضة القومية المتزايدة، وكان عليه أن يقنع مواطنيه بأنه اتخذ امرأة مسلمة زوجة له.

لطالما أعجب فيليب بملابسها التي كانت تستخدمها في أغراض التخفي. كانت تشعر بسعادة عندما تضلل الرجال فلا يتعرفون على كينونتها الحقيقية. في عام 1912 عندما اندلعت حروب البلقان، كانت جاويدان هانم في فيينا. وعندما أراد الخديوي أن تعود سريعاً لمصر، تنكرت في زي ممرضة تابعة للصليب الأحمر، وسافرت على السطح الأوسط لأحد السفن البخارية من مدينة تريست إلى الإسكندرية. كانت تبدل أدوارها الجنسية، كما كانت تبدل أدوارها الاجتماعية (كانت تشعر بسعادة خاصة عندما تثير عمال سطح السفينة الأوسط وتحدث فيهم لوناً من الاضطراب برائحة جلدها الحلوة).

عقب زواجها من الخديوي بفترة قصيرة خصصت لجاويدان هانم وصيفة ألمانية جديدة، عرفت بأنها موهوبة ومرهفة الأحاسيس بشكل غير عادي. في أحد الأيام علمت جاويدان هانم أن وصيفتها تعزف على البيانو في غيابها. وعندما سألت جاويدان هانم أين تعلمت الوصيفة عزف البيانو، كانت الإجابة: "في الدير"، وبالفعل كانت المباركات البابوية معلقة على سرير الوصيفة. كانت الوصيفة تحب باخ، كما كانت تصر على مساعدة سيدتها في نزع ملابسها ليلاً، على الرغم من أنها كانت خادمة مخصصة للاهتمام بعيون سيدتها فقط. بدأت الشكاوى من سرقة الغسيل، والمواد القيمة، وإحدى

المرايا الذهبية. ولكن الشهادات التي شهدت بها السيدات الأوروبيات ممن عملت لديهن الخادمة الجديدة كانت جميعها في صالحها تماماً ولا تشوبها شائبة، كن متيمين بها، وكانوا يلقبونها "باللؤلؤة".

ذات ليلة حلمت جاويدان هانم بأنها تشير في حذر في إحدى غابات النخيل المظلمة، حتى ومض ضوءان، فبدأت التحرك نحوهما في خوف وأدركت أنهما ليسا بضوءين، بل عينين محدقتين. فاستيقظت وفتحت عينيها فرأت أمامها عينين شريرتين، أمام وجهها كانت وصيفتها منحنية وكأنها تطل عليها، وهي تنظر إليها بعينين محدقتين. هنا أمرت جاويدان هانم بتفتيش حجرة الوصيفة تفتيشاً دقيقاً، حتى وجدت في صندوق صغير مزخرف خطابات غرامية كتبها أحد المطلوبين من الخارجين على القانون إلى رئيسة دير للراهبات، كان يشكر فيها محبوبته على كل الأشياء التي أتته بها في غفلة من الحرملك. قبل أن يتم القبض على الوصيفة، كانت قد اختفت، وانتهى البحث عنها أمام بوابات أحد أديرة الراهبات الموجودة بسيناء.

اعتبر فيليب كل قصة اعترافاً كنسيًّا مشفراً. فرحلات جاويدان هانم التي كانت تستلزم منها دائماً البحث عن فنادق ودور ضيافة صغيرة للسكنى (وسفرها في أزياء تنكرية عديدة) لم يكن دوماً خالياً من الأخطار (فلقد أوضح خادمها إسماعيل خوفها من نوبات غضب الخديوي المخيفة).

فالحياة، التي يطاح بها بعيداً عن مساراتها المفروضة عليها مسبقاً، تعني بالنسبة لها، أن تظل الروايات المختلقة تختلط بالوقائع الحقيقية، حتى يصبح من الطبيعي، أن نعتبر كلاهما حقيقة واقعة. أما عن مواهب جاويدان هانم، فهناك مقالاتها حول البستنة، التي كتبتها وهي في الخامسة عشرة من عمرها لجريدة "جراتسر تاجيبوست"؛ وعزفها المليء بالحماس على البيانو منذ فترة شبابها؛ وخيالها المعماري الذي ساهمت به في تشكيل الوجه المعماري للقاهرة أثناء عملية تحديثها؛ ثم هناك كتاباتها ورسوماتها وقدرتها في فن الإغواء.

ثم هناك، غير ذلك، كل تلك السمات غير الاقتصادية التي كانت تتمتع بها جاويدان هانم. كانت ترغب في الحصول على كل شيء على الفور، وكان يصيبها الملل في أغلب الأحيان بمجرد حصولها على ما تريد. كانت تتقبل طباع رجالها وتحتويها، طالما أحبتهم، ثم تتركهم بشكل مباغت وتتحول عنهم، بمجرد أن يبرد وهج عاطفتها الأولى تجاههم. كان ترد على كل شيء وعلى كل موقف في لحظتها. مشاعرها التي تستثار في سرعة البرق عندما يلمسها الرجال. لم تتمسك بشيء على الإطلاق، فبقيت طوال حياتها فتاة لا تهرم، تبدأ كل مرة من جديد.

لذلك كانت تخسر دائما أكثر مما تكسب، ولم يكن هذا يزعجها، أما عن نظرة الخديوي وابتسامته لعشيقة أوروبية جديدة عقب الزواج بفترة قصيرة، فقد جاءت ردة فعلها عليها عام 1913 بطلاقها منه وعودتها إلى فيينا. وهناك قامت

بتأسيس معهد للتجميل، يقدم عروضاً خاصة للعناية بالجسد على الطريقة الشرقية وبتوزيع كريم يحمل اسم جاويدان. هنا ظهر لها زوجها مرة أخرى من أيام طفولتها وواجهها بوثيقة الزواج.

أغلب الظن أنه لم تتم مقاضاتها بتهمة تعدد الأزواج. فالحرب العالمية الأولى كانت في أوجها، وكانت الامبراطورية تتداعى، صحيح أنها صار لها زوج طبقاً للقانون المصري، لكنها فعلت هذا قبل أن تنفصل عن زوجها الآخر طبقاً للقانون النمساوي. لم يكن الأمر في حاجة إلى محكمة، فجاويدان هانم أعطت زوج طفولتها ما كان يتلهف عليه: براءة اختراع الكريم الذي كانت تملك حق توزيعه والذي سيظل يوزع لما بعد موته.

ويبدو أن هذه العلاقة المؤلمة قد تم تنظيمها آنذاك طبقاً لعرف طبقتها الاجتماعية، من خلال زواجها السريع من عمها وعندها صارت من جديد "ماري توروك فون تسيندرو"، وقد أقامت مع هذا الرجل خلال فترة العشرينيات في برلين.

هناك كانت لها نفس الصورة المزدوجة: سذاجتها، عُاشت في منزل موسيقيّ، وقامت بتجويد عزفها على البيانو، وبدأت تؤلف موسيقاها الخاصة بنفسها، على الرغم من أن إنتاجها الأوركسترالي قد اختفى تماماً كما يقال، ثم هناك إرادتها المتفردة الحرة، التي ظهرت عندما ألفت كتباً عن الحرملك تحت اسمها الإسلامي، وفي إصرارها على أن تظل الأميرة

جاويدان هانم، المواطنة التركية، التي صدر جواز سفرها في أيام السلطنة العثمانية.

أودى بها طلاقها المتكرر من أزواجها، إلى الخراب. لم يجد فيليب أي أثر في حياتها للدبلوماسي السويدي، أو للخديوي، أو لعمها الحقيقي. مع بداية الثلاثينيات كانت قد أطلقت على نفسها اسم جاويدان هانم فقط. عندما بدأت في كتابة مسرحياتها الإذاعية، لفتت إليها نظر جيرهارت هاوبتمان فنشأت صداقة بينها وبين هذا الكاتب المسرحي وزوجته مارجريتا، كما كان كلاهما يشاركها حبها للحيوانات. كانا يصغيان لها وملؤهما الشفقة وهي تحكي عن الجاموس الذي تقطع آذانه بسبب الحرارة العالية، كما أخبرها سائق حنطور مصري، وعن العواميد الخشبية المغطاة بالمسامير، والعصي الحديدية، والمقارع، التي ابتليت بها حيوانات العمل. وكانت تحرص على أن تكرر دائماً أن الحياة البائسة ليس فيها سوى البؤس، إلا أنها كانت لا تفتأ كذلك أن تؤكد على أنها تحذر وتذكر المتعاملين مع هذه الحيوانات بعدم التعامل معها على هذا النحو، إلا أن هذا كان لا يزيدهم إلا إصراراً على ما يفعلون مما كان يضيف لعذاب هذه الحيوانات المزيد من التعذيب.

كانت جاويدان هانم مشغولة بخطتها في تأسيس طريقة صوفية للنساء. في هذه الأثناء كان هتلر قد وصل للسلطة، فامتزج تعاطفها مع المخلوق الأنثوي الذي يعاني من مبدأ القومية المشوش الذي اعتنقه أصدقاؤها. لم يكن تعاطفها مع

الحاكم الجديد محدداً، فالمسألة بالنسبة لها كانت عبارة عن مسألة أعراف، كان يراودها الإحساس بأن هناك تاريخاً تعاد كتابته، فالعروض العسكرية ومسيرات المشاعل قد أثروا فيها بلا شك، ولقد أرادت بالفعل ذات مرة، عندما كانت خليلة للخديوي ما زالت، أن تحمي إحدى البلاد من غارة من الغارات. كانت متقبلة لفكرة نظريات المؤامرة. كانت أثناء ذلك قد قاربت على السبعين، وكانت تعيش في عزلتها الاختيارية بمدينة برلين بحي شارلوتينبورج. لم تكن ظروفها سيئة، كان بعض الضباط يتناولون لديها العشاء أحياناً، كما أن الحرب، ومعاناتها، وجرائمها لم تصل إليها، فقد كانت الكوارث تمر أمام بابها، دون أن تمسسها بسوء، كانت تعزف على البيانو، وقد أولت ظهرها للعالم، بلا انقطاع حتى ما بعد منتصف الليل.

كان فيليب، عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، قد بلغ الثلاثين لتوه، وتم استدعاؤه للجيش، ثم أرسل إلى الجبهة البولندية وبعد ثلاثة أيام اخترقت شظية إحدى ركبته، فعاد على إثرها إلى برلين بعد أن قضى عدة أسابيع بالمستشفى العسكري. كان فيليب يشرب خمر الأبسينث ليخفف بها آلامه. وذات ليلة تعرف في إحدى الحانات الواقعة خلف شارع بوتسدامر شتراسيه على إسماعيل، رجل حاله يدعو للشفقة، فشل في حياته نتيجة قسوة ماضيه، فجعل يمخر في بحر الحياة بلا حظ

ولا بارقة أمل ليكسب قوت يومه، عن طريق إقحام نفسه على الرجال وعرضه خدماته عليهم.

كانت أخلاق إسماعيل الكريمة، وطريقته المرحة والملهمة في الحوار والتسامر هي ما جعلت فيليب ينصت إليه. لم يكتب في يوم كتاباً، إلا أنه كان يلقب نفسه بالشاعر. كانت وجنتاه منتفختان قليلاً، وعلى الرغم من ذلك كان وجهه يعطي انطباعاً طفولياً. لم يكن يشرب المشروبات الكحولية، ولم يكن مدخناً، أما يداه فلم يكن بهما أي أثر للأعمال البدنية. كان إسماعيل يأسر مستمعيه بحكاياته، وكانوا هم يتألمون ويشعرون بالأساة، عندما يصف لهم معاناة الأطفال في أسواق العبيد، وينذعرون عندما يحكي لهم عن تقاليد الأمراء الشرقيين الغاشمة، وكان يخلب أسماعهم عندما يحكي لهم عما كان يحدث في الحرملك من أفعال فاجرة.

كان فيليب يشعر بالتعاطف معه، فبعد هروبه من مصر أهدر حياته في مسارح المنوعات بباريس، ثم هو الآن يبحث عن إحدى الملكات السابقات، قال إنه كان ذات يوم حارسها الدائم المرافق لها طوال الوقت. كان فيليب يكتشف كل ليلة رويداً رويداً ذلك الرجل الملغز على مائدة مختلفة، وكان يسمع بنفسه كيف يختطف ندماء الشراب إلى عالم الشرق المظلم.

كانت مائدة الحانة بمثابة خشبة المسرح بالنسبة لإسماعيل، حيث يطلق العنان لمواهبه الدرامية بنفس الطريقة دوماً. كان بالطبع يعيد سرد قصصه ويكرر نفسه، لذا كان عليه أن يجد دوماً مستمعين جدداً. صحيح أنه كان يمتلك القدرة على

التعبير عن معاناته، إلا أنه كانت تنقصه الطاقة اللازمة للتغلب على هذه المعاناة والتحول لإنسان سعيد .

في النهاية عاد هذا الإسماعيل إلى باريس، بعد أن فشل في أن يجد سيدته السابقة في برلين. كان من المفترض ألا يراه فيليب مرة أخرى. إلا أنه عقب انتهاء الحرب حدث وأن التقى السيدة، التي طالما سمع عنها الكثير، جاويدان هانم، والتي كانت تعمل مثله مترجمة، فبينما كان مشغولاً في القطاع الألماني الذي يحتله الروس، كانت هي تصاحب بعض الضباط الفرنسيين الذين كانوا يتفاوضون مع السوفييت.

كانت تمثل بالنسبة له شباباً أبديًا. كان تقدم السن قد أدى إلى جفاف بشرتها، وضعف عضلاتها، وغوران عينيها في محجريهما، وانحناء ظهرها، ولكنه لم يمس تفكيرها أو مشاعرها، لم يمس عواطفها أو شوقها. أغرم فيليب برأسها الطفولي المتصنع، وحركاتها المتكلفة. كان شعرها، الأسود الفاحم، متموجاً، وقد علق في أذنيها قرطان ثقيلان مستديران، من النوع نفسه الذي كانت ترتديه في معصميها. كان وجهها يبدو كما لو كان مقنعاً بعض الشيء، كان مشدوداً وتغطيه مساحيق التجميل، وقد أعاض عن حاجبيها خطان متموجان على هيئة قوسين في جبهتها.

أما ما أثر فيه بشدة فكانت يداها. يدان قويتان ذات أصابع طويلة، أقرب ما تكونا إلى يدي رجل غليظتين، لهما القدرة على القبض بحزم على الأشياء. كانت تبسط جسدها في شموخ وتميل به للخلف في سيادة، وكانت تمد ذراعيها أمامها

على المائدة، وترشق سيجارة مشتعلة في يدها اليمنى بين إصبعيها الخنصر والوسطى، لم تنظر أبداً إلى الأرض، ولم تفلت منها نظرة واحدة في اتجاه غير الذي تريد. كانت عيناها مركزتين على من يجلس قبالتها، بينما افترت شفتاها عن ابتسامة لعوب.

تجاهلت جاويدان هانم خبر بحث إسماعيل عنها في برلين، كما بدا لها الأمر بديهيًا أن يعرف فيليب تاريخها، أما بالنسبة له فقد بدا له أنه من غير اللائق أن يتحدث هو عن ماضيها. صفة احتفظت بها حتى موتها: لم يكن مسموحاً لفيليب على الإطلاق أن يستعلم منها عن شيء، فهي تفترض مسبقاً أنه فهم كل تلميحاتها.

سألت فيليب عن خادمها المخصي، ولكنها سرعان ما قاطعته ثانية، عندما بدأ في رسم صورة حزينة عنه، فلم تكن ترغب في سماع أي شيء يتسم بالبؤس أو الكآبة. قاطعته وتحدثت معه حول دراساتها في اللغة العربية القديمة (يا له من مشهد، هي تتحدث عن دراساتها في اللغة العربية، بينما يطل عليهما المدخل الكئيب لمقر قيادة مركز التدريب السوفيتي. كان كئيباً وبلا ضوء).

قالت إن الخديوي خصها بميزة استقبال أحد العلماء الألمان بغرفة مكتبها. حكت أن الشمس كانت تتوهج بالخارج، وتتفتح الورود وأزهار الخشخاش متعددة الألوان أمام النوافذ، وتحيط أزهار الياسمين البرية بجذوع النخيل، بينما كان صوت المؤذن يرتفع في الفضاء من المأذنة القريبة ليدعو الناس إلى

الصلاة. كانت الكتب تتكوم في الحجرة التي يغطي الظل نصفها، وترقد المخطوطات الجلدية القديمة مبسوطة فوق سطح المكتب، بينما يقودها صوت العالم في رحلة تمر بها عبر مكة والمدينة، مخترقاً الصحاري والواحات.

عندما استدعيت إلى غرفة الضباط، انقلب مزاجها. قالت لفيليب وهي مكدرة المزاج، أنه طلب منها في يوم من الأيام بأمر من الخديوي، ألا تكتفي بارتداء المعطف والحجاب في حضور العالم الألماني، بل يجب عليها أيضاً أن ترتدي القفاز، حتى لا تسلم عليه بيدين عاريتين. كانت مقتنعة بأن أى شيء ضد إرادتها لا يدوم طويلاً. كانت دوماً سيدة قدرها، حتى وهي تعمل الآن كمترجمة معوزة، لم تستطع أي عقبة أن تحطمها أو تحني إرادتها. التوفيق وعدم التوفيق والقدر والمصير، كانت تحب أن تعيش دائماً في ظل هذه الكلمات. كانت الشيوعية قدراً سيئاً، أكبر وأسوأ من ذلك القدر الذي مرت به ألمانيا.

كانت ذكريات فيليب عن فترة ما بعد الحرب تحتوي على أشياء مادية بائسة، أكثر مما تضم بشراً: شوارع مدمرة خربة، عصائد، أوعية حديدية في مقر قيادة مركز التدريب السوفيتي، جبال من الحطام، حتى البشر كانوا أشياء أكثر منهم مخلوقات حية، طوابير انتظار طويلة، أشخاص من المعاصرين لهذا الوضع ينظرون في الهواء في عدمية وذبول. أما هي فقد كانت على العكس من هذا، كانت اللامعاصرة هي الصفة التي أحبها فيها فيليب بشدة، فلقد كانت

ملكة و ها هي ذات الآن ليس لها مكان يأويها. كانت تقترب من السبعين، وتحاول الفرار من البؤس، الذي كان يثير حنقها، أكثر مما كان يخيفها.

بدأ الأمر، عندما توفي الخديوي في منفاه بسويسرا، وحيث إنه لم يذكرها في وصيته، لجأت جاويدان هانم إلى الملك فاروق، ابن أخيه وحاكم مصر المعاصر آنذاك ، وكان معروفاً في أوروبا بولعه الشديد بمتع الحياة ولذاتها ولأنه لم يوافق على دفع معاش لها، راودتها فكرة أن تبيع حكايتها للمجلات والنشرات الأسبوعية في دور العرض السينمائي. وبالفعل اتصلت بأحد الوكلاء الإعلاميين فطلب منها الحضور إلى باريس.

قام هذا الوكيل بتصوير إضراب الطعام الذي قامت به جاويدان هانم عام 1946 أمام الفيلا الفخمة، التي سبق وأن أقامت فيها. كان على جاويدان هانم أن تسقط منهارة على رصيف المشاة عندما تقترب فرق التصوير من الموقع. في الأيام التالية صدرت الجرائد وهي تحمل عناوين مكتوبة بالبنط العريض تقول: ملكة شرقية تتضور جوعاً، و أميرة مصرية في الوحل. عندئذ عرضت عليها السفارة المصرية مبلغ 500 دولاراً مقابل عودتها الفورية إلى ألمانيا، فقام الوكيل الإعلامي بنشر صورة للأميرة ذات الثلاثة وسبعين عاماً وهي تقلي البيض على البوتاجاز.

وكتب تحت الصورة أن صاحب أحد الفنادق قام بتعيينها طباخة بالفندق. وعلى الرغم من أن هذا الوكيل الإعلامي كان قد نجح بالفعل في بيع هذه القصة التراجيدية في ثماني وثلاثين دولة مختلفة، إلا أنه لم يتمكن من ابتزاز الملك المصري. خرجت جاويدان هانم من هذا الموضوع صفر اليدين تقريباً، فقد اختص الوكيل الإعلامي نفسه بالنسبة الكبرى من الأرباح باعتبارها مصروفات، وعادت هي إلى برلين، لتصبح بعد فترة قصيرة في رعاية أحد أبناء عمومتها بالنمسا، الذي أخذها لتقيم معه في قصره بالقرب من مدينة "جراتس".

ما كان أحد غير جاويدان هانم ليبدو أقل سخفاً منها وهي تسقط على الرصيف من شدة الجوع وهي تهذي بعينين مفتوحتين زائغتين متوسلة من أجل الماء والخبز. إنها الآن ملكة الشارع المتوجة، وقد صارت أكثر شهرة مما كانت عليه عندما كانت ملكة متوجة على شعب بأكمله. الآن صار الحرملك في الشارع. تفهم فيليب برقة ومشاعر مرهفة ما فعلته وأدرك أنها فعلت ما فعلت من فرط يأسها. أحب فيليب مواضع ضعفها. وعندما بدأت تبحث عن ملجأ لها وملاذ في القصر الذي قضت فيه طفولتها، كان قدره هو ألا يتركها أبداً بعد ذلك.

كان غريباً عليها أن تحاول استخلاص النتائج من هزيمتها تلك، فكلمة هزيمة لم توجد قط في قاموسها، لذا فلقد قررت (كانت قراراتها تسري منذ فترة طويلة على فيليب هو الآخر

من دون أي سؤال) أن تقبل دعوة قيصر أثيوبيا التي قالت إنه وجهها إليها هاتفيًا. الشيء المؤكد أن هذه المكالمة لم تتم على الإطلاق، ومن المؤكد كذلك أنها لم تسافر لا هي ولا فيليب عام 1947 إلى أثيوبيا، وعلى الرغم من ذلك ظلت جاويدان هانم حتى موتها مصرة على ادعائها بأنها كانت وصيفة في بلاط "هيلا سلاسي" قيصر أثيوبيا، بل إن الجرائد قامت بنشر هذا الخبر بعد عقد كامل بلا أدنى مبالاة.

الذي حدث فعلاً هو أنه لا فيليب ولا جاويدان هانم قد تركا القصر الواقع في مقاطعة "شتابرمارك" حتى انتقالها للإقامة في مدينة جراتس. كان جد ابن عمها هذا مستشرقاً كثير الترحال، مما مكن جاويدان هانم من التجوال بين جنبات القصر الذي يعود إلى عصر الباروك كما يحلو لها، كما تمكنت من تخيل نفسها في أماكن غريبة عنها لأنها كانت تتأمل مجموعة تذكارات الصيد الإفريقية، والآثار المختلفة لأدوات من التي تستخدم في حيوات يومية إجزوطيقية، فالممشى المقنطر بالقصر، وجناحها المزود ببيانو "بيكشتاين"، والمكتبة، كل هذا تحول تماماً إلى حرملك، تجوب فيه أوهامها، إلى عالم بلا هموم. ربما لا يكون هناك ما يبرر زعمها بأنها كانت وصيفة بالبلاط الأثيوبي سوى الآتي: لعلها قرأت في إحدي الجرائد أو المجلات عن "هيلا سيلاسي" الذي عانى كثيراً.

(ألغى هيلا سلاسي العبودية في أثيوبيا، ثم هرب من قوات موسوليني إلى إنجلترا، ولكنه عاد إلى أثيوبيا ثانية بعد الحرب العالمية)، وتوهمت نفسها إلى جوار هذا القيصر الأسمر.

لم تهتم على الإطلاق بأن هيلا سيلاسي كان مسيحيًّا قبطيًّا، أو أنه معبود حركة "راس تافاري" الدينية، أو أنه ملك الملوك، أو أنه أسد قبيلة يودا المنتصر: كل مَا رأته هوّ القيصر الذي يمتطي صهوة جواده الأبيض، شاهراً سيفه بشكل مهيب، وفوق رأسه تاج الذهب، وبجانبه الأسد. اعتبرت هي هذا القيصر، الذي حمل راية أثيوبيا ثلاثية الألوان الحمراء-الصفراء-الخضراء، (يزمز الأحمر للدماء التي فقدها الأفارقة، والذهبي للثروات التي نهبت منهم، والأخضر للأرض التي اغتصبت منهم)، مسلماً، وذلك بحسب فهمها للكيان الإسلامي: أمر غير عادي؛ فالقيصر الذي احتفل به عازفو الموسيقى الغربية في جامايكا باعتباره المسيح الأسود والمناضل ضد الاستعمار، كان بالنسبة لها أيضاً السلوى والعزاء.

وعلى ذلك فإن فهم فيليب عن الحريم والحرملك يعود الفضل فيه إلى مخيلتها. وتصور نعم، لم يعرف فيليب شيئاً عن ذلك إلا عن طريق خلطها السافر؛ فقط عن طريق ذلك استطاع أن يعايش معها ما عايشته (وبالمناسبة فإن القيصر الذي كان يعبده أنصار حركة "راس تافاري" كان ضحية ومجرماً في الوقت ذاته؛ فهو محرر العبيد الأسود وهو نفسه الطاغية الأسود). تحديداً كانت اختلاقاتها حول الشرق هي ما جعلته

أكثر إلهاماً لفيليب. عندما كانت تسرد الأحداث بشكل خاطئ لم تكن تحكي أكاذيب، بل على العكس، كانت تصنع منها كرة متشابكة الخيوط، ثم ما لبثت هذه الكرة أن تصبح العالم بأسره، ظاهرة مخنثة.

بدأ فيليب يشعر بأنه يقترب من هذا العالم، من ميراثها: ففي مملكة الحريم تختبئ دوماً هذه الازدواجية الجنسية، فالجارية لم تكن خادمة ولا فرداً من أفراد الأسرة، وكانت أقل الجميع شعوراً باحتياجاتها، أي نشوتها الجنسية. ولأنها تحصل على حقوق الزوجة بمجرد حملها، فسرعان ما تنسى هي الأخرى شعورها بالعبودية. أما عن سيدتها فينقصها بدورها شعورها بكونها أم وزوجة، لأن الأمر متعلق بمزاج زوجها مما يدفع بها للاقتراب من كيان الجارية. "زوجي وزوجتي"، مثل هذه المصطلحات لم يكن لها وجود في الحرملك، كما أن سادة الحرملك كانوا أقرب لعبيدهم المخصيين منهم للرجال غير المختونين، كانوا ينشأون مع الحريم في الحرملك، ويقضون أوقاتهم باعتبارهم بشوات، مع البستانية، وفي متابعة أعمال الطهو، والغسيل، والكي. لم يكن يحدث شيء جديد في الحرملك، فكل شيء مكشوف ومنتهك منذ وقت طويل. كل شيء خبيء ومحاط بالكتمان، ولكنه كان معلوماً لدى الجميع في الوقت نفسه، وخلف الحجب يتحول بالذات كل ما هو غامض إلى شيء ممنوع ولا أخلاقي.

أوضح فيليب أنه من الجائز أن يكون الوكيل الإعلامي هو الذي اختلق قصة عمل جاويدان هانم كوصيفة، فجاويدان هانم

لم تكن تتحدث مع فيليب في الأمور الملكية، ولم تكن هي شخصيًا تعطي أية تفاصيل أو معلومات عن الطريقة التي تكونت بها قناعاتها الشخصية حول أى موضوع. على كل حال، فإن الوكيل الإعلامي عاد للظهور مرة أخرى عام 1951، ووعد جاويدان هانم بالقيام بدور سينمائي في أحد الأفلام.

حيث كان أحد المخرجين الإنجليز يبحث عن ممثلة رئيسية لفيلمه "ملكة ليوم واحد"، الذي يحكي قصة خادمة في أحد الفنادق، تقوم بأداء دور ملكة كي تنقذ إحدى الزيارات الرسمية لإحدى الولايات. وبالفعل تبعت جاويدان هانم الوكيل الإعلامي إلى باريس عن طيب خاطر. كان من المفترض أن تتم تجربة الأداء في لندن، ولكن الوكيل كان قد خطط لفضيحة جديدة. كان على جاويدان هانم أن تتردد باستمرار على السفارة البريطانية، باعتبار أنها كانت قد قدمت طلباً للحصول على تأشيرة دخول، ولكنه رُفِض. قامت بعض الجرائد البريطانية والفرنسية بترويج شائعات عن أنها لم تعد تؤدي التزاماتها، وأعلنت أن سبب جمالها ومظهرها المهيب هو أنها تتناول يوميًا زبادي خالٍ من السكر وخضروات غير مطهية وأرزًا على الطريقة الشرقية.

هنا توقف فيليب. فكلما اقتربت القصة من الحاضر، شعر بأنها تزداد بعداً وتنزع نحو نهاية عنق زجاجة ضيق، يتجمع معها البصر على مساحة صغيرة محددة: تلك المساحة تجسد ما يدركه هو بشكل مباشر باعتباره مرافقاً لها، حيث انتقل للعيش

معها عقب فشل الفيلم بفترة وجيزة في مدينة جراتس في أحد المنزلين المتجاورين، وهو المنزل الذي قام ابن عمها بتأجيره لها.

كانت تمارس حياتها اليومية هناك على نحو منظم رتيب: فعند الظهيرة تفتح له أبواب حجراتها، وذلك كي يقوما بأداء نفس الأنشطة اليومية بشكل طقسي، بدءا من الأوقات المخصصة للمحادثة، وزيارتها لمقهى "بروميناديا"، ثم التنزه مع الكلب على شاطئ بحيرة "هيلم" (كانت رعاية الكلب من مهام فيليب)، وراحة ما بعد الظهيرة المتأخرة، وانتهاءً بالساعات التي تقضيها على المنضدة، لكتابة خطاباتها.

كان الليل مخصصاً للقراءة، والرسم، والعزف على البيانو، والحب. كانت تسمي نفسها خادمة كتبها. عيناها المتحمستان وهي تحكي، كيف أن الخديوي لم تكن له ردة فعل ضدها، بسبب عشقه لها، عندما كانت تتجول متنكرة بإحدى عربات الأجرة الخفيفة في القاهرة وهي ترتدي طربوشاً أحمر فوق رأسها، وتمدد جسدها وقدميها في استرخاء وراحة على المقعد الخلفي، وتمسك في إحدى يديها بمظلة خضراء، وفي الأخرى بكتاب مفتوح، وإلى جوارها جبل من الكتب.

كانت إحدى قريباتها هي من جذبتها إلى الرسم في منتصف الخمسينيات، وكانت من أصل هولندي، ولكنها ترعرعت في النمسا. بدأت جاويدان هانم في كتابة الخطابات بانتظام لتلك الفنانة التي تمارس الرسم على الزجاج. ذات مرة ادعت جاويدان هانم، أنها قامت بمساعدة بعض أصدقائها من اليهود

في الهرب أثناء فترة الحكم النازي. ثم اكتسبت ملامحها سمات البراءة، ونظرت إلى فيليب وهي ترمش في طفولة، وقالت له: إذا أردت فإنني سأتوقف من الآن فصاعداً عن هذا.

كانت تقصد التوقف عن اختراع حياتها باختلاق قصص لا تعرف محرمات أو تابوهات حول شخصها وحياتها، بعدما تملكتها روح المقاومة التي تمتعت بها صديقتها، التي أخفت بعض الشباب اليهودي أثناء الحرب في منزلها في أمستردام. كما كانت تقصد حبها الشخصي للمدينة التي تتخللها القناة الملاحية، ذلك الحب الذي استمدت منه الحق لنفسها في أن تنصب نفسها بطلة لأمستردام.

كان فيليب يعي كل هذا، فجاويدان هانم لم تكن ذات كفاءة في الأمور العملية، فكثيراً ما كان يسقط منها أحد الفناجين، أو تنزلق أدوات الطعام من بين يديها على المائدة، أو تعدو دون أن تنظر فتصطدم بأحد خزانات الملابس أو بأحد الأبواب المفتوحة، ثم يقوم هو بجمع الحطام المتبعثر ويضع منشفة مبللة على مكان الارتطام. لم يكن مزاجه يتعكر، لأنه كان يكره كافة أنواع التربية، ولو أنه كان قد قدر له أن يربي أطفالاً لنشأوا منحرفين فاسدين. كان ينقصه الطموح البروتستانتي الكالفاني. كان أبعد الناس عن الرغبة في زيادة أي شيء، فلم يكن يحب أي زيادة لا في مال ولا في ملكية، أو معرفة، أو نفوذ، أو حتى أخلاق. حتى اليوم يشرب فيليب خمر الأبسينث، كأساً تلو الآخر، دون أن يثمل، لا يعاني حتى

من زلة لسان، أو من الترنح نتيجة الشراب، فالكحول يزيد دوماً من حدة حواسه.

كان أول عمل قامت فيه جاويدان هانم باستخدام فرشاة الرسم هو زخرفة قطع من الأثاث المطبخي. لم تتعلم الرسم أو مزج الألوان، كما لم تجد تقنيات الرسم على الإطلاق. توقفت جاويدان هانم عن العزف على البيانو، وذلك كي تقترب أكثر فأكثر من حامل لوحاتها، ولكي تعبر بالألوان عما تثيره النغمات داخلها من معان. كانت ترسم مستخدمة ألوان المينا، كما كانت تستخدم غالباً الفرشاة في الرسم، لكنها كانت ترسم كذلك بيديها المجردتين في كثير من الأحيان. لم تكن تعلم كيف حدث لها هذا. كانت روحاً هائجة، تحاول أن تفرغ توترها. "القسمة والنصيب"، كثيراً ما كانت تكرر هذه العبارة، حدث قدري. في أغلب الأحوال كانت وجوه النساء، محجبات أو غير محجبات، هي أكثر ما يجذبها لترسمه، فقد كانت تنفذ من خلالها وترى بها مناظر مختلفة، منها أزهار وحيوانات، ثم مومياوات وأقنعة.

بعد معرضها الأول في مدينة جراتس، أطلق عليها أحد النقاد لقب "شاجال الشرق"، وتحدث عن شاعرية الصورة والسذاجة المنبعثة منها لسيدة عالمية متحررة من النزعات الإقليمية. حتى هي كان يحلو لها أن تعتبر نفسها وسيطة غامضة تعرف جيداً ليالي الشرق ذات النجوم اللامعة المتألقة وهمهمات أحاديث الحرملك الخافتة، كما تعرف كاتدرائيات

المدن الغربية، واعتبرت لوحاتها نوعاً من الرؤى على ضفاف النيل.

كان عزفها على البيانو يؤدي في النهاية إلي تحولها للتصوير أو إلى العناق والأحضان. تبدأ العزف عقب غروب الشمس وفي حضور فيليب. مع كل لمسة كان يشعر بأنه يتماهي في الذهاب إلي حيث يكتنفه الخلود والأبدية. بمجرد أن يلج فيها ماذا يحدث، يتحول الأمر فوراً إلى ذكرى ونصر على الطبيعة في آن واحد، كان توحداً بين جسدين لا يحده شيء، لم يعدا يملكان قوة الشباب، فتنفذ أنفاسهما ويظلان ساكنين بلا حراك، إلا أنهما كانا يقتربان أكثر فأكثر من السماء حتّي يكادا يمساها بأيديهما. كان صراخها يستدعي أشباح العالم السفلي، فرغبة هذه المرأة المسنة الضعيفة كان هو جوهر مفهوم الامتزاج بين الصلب والسائل، بين المروض والبري، بين المؤنث والمذكر، بين المعرفة بالشعور والوجدان وبالبحث والاستقصاء.

تسائل فيليب: أكثر من هذا؟ هل هناك ما هو أخطر؟.هل هناك أحداث غير هذه احتفظت بها ذاكرته؟ ماذا بقى من معايشاته، مما سمع، ومما رأى، وأي من هذا كله هو الذي تحول فعلاً إلى عالم الحقيقة والواقع؟

هنا تلمس فيليب طريقه إلى حدث معين. فقبل أن تتوفى جاويدان هانم بعدة أسابيع، وقف فيليب أمام حجرة نومها، وأنصت في اهتمام إلى الأصوات القادمة من وراء الباب. لم

تكن تلك أصوات امرأة تعاني، بل أصوات تعبر عن رضا عميق. وبينما كانت السيدة العجوز خارجة من غرفة نومها، رأى على الكومودينو المجاور لفراشها العضو الذكري المصنوع من العاج، وأدرك أن هذا الهدوء الذي يرتسم على وجهها، هدوءٌ لم يعهده بها قبل ذلك أبدا.

كل هذه الأحاسيس، التي تنمو مع الحياة. الآن فقط اتضحت له الأمور على نحو صحيح، على الرغم من أنه كان موجوداً آنذاك في باريس، عقب الحرب، عندما قام الوكيل الإعلامي بتصوير مشهد انهيار جاويدان هانم. هذا المشهد الذي كان على جاويدان هانم أن تمثله، كانت قد تعرضت له بالفعل في اليوم السابق على هذا. كانت تتنزه مع فيليب في شارع الشانزليزيه، عندما كانت تغمرها ذكريات الأيام السعيدة، وسقطت فجأة مغشياً عليها. كان يمكن أن تؤدي هذه التمثيلية إلى سوء فهم، وإلى انعدام الشعور بينهما. ولكن كانت هناك بالفعل معاناة وسعادة كذلك، فضلاً عن أن المعاناة نتيجة لفقدان السعادة، كل هذا كان موجوداً فعلاً. والآن، وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً، لاحظ فيليب في هذه اللحظة وهي تخرج من غرفتها، أنه لم يكن هناك أدنى أثر للفزع من الفناء في ذلك الهدوء الذي كان يكسو صفحة وجهها.

تساءل فيليب: ما إذا تلك الأحداث التي تشكل الحياة؟.ما الأحداث الحقيقية التي وقعت بالفعل والتي يمكنه أن يرويها حول امرأته المحبوبة؟ ما الحقيقي وما الزائف؟ هو نفسه لم يعد يعلم. فلطالما قرأ وسمع عنها من الآخرين، وعموماً كان

كل شيء سيان، سيان من كتب عنها، وسيان من حكا عنها، سيان كذلك هل كان كل ذلك صدقاً أم لا. حتى ما رآه هو بنفسه لم يبد له مهما، فكل ما عايشه معها لم يعد يصنع فارقاً كبيراً، ولهذا فهو لا يعرف من كانت هذه المرأة. لم يكن أبداً متأكداً تماماً أنه قادر على فهمها أو استيعابها، لا سيما وأن ما فعلته وما لم تفعله كان يؤدي دائماً إلى إحباط تصوراته عنها، كان يتبين له أنها دائماً شيء آخر غير ما تصوره عنها، والحقيقة الواقعة أيضاً ليست سوى وهم، يعزي ويلهي الناس به أنفسهم عن موتهم.

ما الذي يبقى إذاً من الحياة؟ من الحياة كاملة، حياتها المتفردة، حياة مشبّعة. كتب فيليب: الآن يبزغ عصر جديد، وإنه لمن الوهم أن نتصور أنه يمكن أن يقال عنها بعد الآن أي شيء أكثر دقة. وحتى لا يقف وحيداً أمام قبرها، قام بحث بعض الطلبة المسلمين من المعهد الفني، على المشاركة في تشييع جثمان جاويدان هانم.

لم يكن أمامه سوى أن يصمت من الآن فصاعداً، فلقد أهدر ذاته بسبب شكه العميق، وأنهك نفسه في أعباء الحياة اليومية، حتى لا ينجز شيئاً ذا قيمة. وكان يتعامل مع المسائل الروحية بشكل بيروقراطي، يحسب كل جهد، تتطلبه أو تسببه أية حركة أو شعور إنساني. كما يقوم بتقسيم طاقته، ولا يستخدمها كلها أبداً. فهو يعلم أنه سيأتي دوماً آخرون، ينزفون من جروحهم المفتوحة، لأنهم فقدوا شخصاً عزيزاً عليهم.

في عام 1930 صدر في برلين كتاب بعنوان: "الحرملك. ذكريات الزوجة السابقة لخديوي مصر". أما المؤلفة فهي الأميرة جاويدان هانم، التي كتبت بالتعاون مع أختها ذكرياتها عن الوقت الذي قضته في الحرملك. يعتقد أن هذه السيدة قد ولدت عام 1877، وماتت عام 1968، وأنها كانت ذات يوم دوقة نمساوية – مجرية شابة، وأنها ربما كانت كذلك أيضاً مواطنة صربية، لكن الشيء الثابت أنها كانت عشيقة أو زوجة آخر خديوي لمصر، وهناك اختلاف أكيد عما إذا كانت صديقة لروبرت موزيل، وجيرهارت هاوبتمان. كانت هي نفسها أديبة، وأستاذة خصوصية، وعازفة بيانو، ورسامة، ويقال إنها هي من ألهمت روبرت موزيل مسرحيته الهزلية "فينتسينتس – وصديقة الرجال المهمين".

تعتبر بعض الملاحظات الواردة في مذكرات موزيل بمثابة شهادة تثبت بالفعل وجود الكثير من الشائعات الدائرة حول شخصها آنذاك. إلا أن هناك دافعًا محركًا وخيطًا رئيسيًّا سارت على هديه روايتي هذه منذ أن كانت في صورتها الرقمية، وهو أحد أعمال موزيل الأدبية، ألا وهو روايته "ثلاث نساء". أما عن فهمي للإشكالية الكامنة في مثل هذا النوع من السرد، فيعود الفضل فيها أولاً إلى مقال أورسولا

ريبيل بعنوان "القوة الكامنة في فانتازيا التحول" ثم، وبشكل خاص، إلى كتاب فيلو هويتساي بعنوان "الاشمئزاز في السرد".

كما استعنت بما كتبه كارل كورينو حول جاويدان هانم، وانسابت في الرواية كذلك، علاوة على مذكراتها الشخصية، والملاحظات المكتوبة في مذكرات موزيل حولها، مجموعة من النصوص التاريخية والأدبية، من بينها مسرحيات موزيل "فينتسينتس – وصديقة الرجال المهمين"، و"الحالمون"، و"دفتر ملاحظات موزيل" للكاتبة بورا كوزيك، و"قدر سيئ، لا تلزم معه الأماني" لبيتر هاندكه، و"خديوي مصر الأخير"، ومذكرات عباس حلمي الثاني، و"ثري للغاية". وكذلك كتاب "الحياة البراقة والموت المأساوي للملك فاروق" لويليام ستاديم، و"ملكة ليوم واحد" لسمير رأفت.

المؤلف

المؤلف
فالتر جروند

من مواليد عام 1957. يعيش في قرية " أجسباخ دورف/ فاخاو" بالنمسا. يعمل في الحقل الأدبي منذ أعوام طويلة في مجالات عدة، منها التأليف والنشر والمشاريع الثقافية. نشر السلاسل والدوريات الأدبية مثل سلسلة "مقال" الأدبية، ودوريات "نيبلهورن، أبسولوت، ليكور". ومن رواياته: "اغتصاب الأرض"، و"الابريز"، و"الميدان"، و"أصوات"، و"جروند مطلقاً".
منظم و أحد مؤلفي مشروع "جروند مطلقاً هومير". ساهم في ربيع عام 2002 في مشروع "التأليف على شبكة الإنترنيت" بكلية الهندسة في زيورخ بالتعاون مع صحيفة "نويتسوريشيرتسايتونج".

يرأس منذ عام 2004 مشروع المكتبة الافتراضية على شبكة الإنترنيت www.readme.cc. بداية من عام 2005 قام بالإشتراك مع "بيآت ماتسيناور" بنشر سلسلة "القراءة على شبكة الإنترنيت. كتب ومواقع"، في دار نشر هايمون فيرلاج وعلى موقع www.lesenamnez.org

صدر له عن دار نشر هايمون فيرلاج الأعمال التالية:
"الجندي والجَمَال"، رواية (1998)، "الراوي والفضاء السيبري"، مجموعة مقالات (1999)، "منزل قديم على نهر الدانوب"، رواية (2001)، "الماشي"، رواية (2002)، "الكتابة على شبكة الإنترنيت" كتاب. الأدب في العصور الرقمية (بالإشتراك مع يوهانز فير)، كتاب (2003)، "ثلاثة رجال"، رواية (2004)، "الديوان الأصفر"، رواية (2009).

المترجم
د. طارق عبد الباري

كاتب ومترجم حر، عضو اتحاد كتاب مصر.
أستاذ الترجمة وتاريخ الأدب الألماني والحضارة المساعد بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن – جامعة عين شمس بالقاهرة. مترجم فوري. يكتب الرواية والسيناريو والقصة القصيرة والشعر والمقال الصحفي باللغتين العربية والألمانية.

أسس المركز الثقافي المصري – الألماني (ÄDK) بمدينة نصر– المركز المعتمد رسمياً من معهد جوته- نشاطاً لا يهدف للربح، وهو مركز الامتحانات المعتمد كذلك من هيئة دبلوم اللغة الألمانية النمساوي التابع لدولة النمسا (www.adkcentral.com).

نظم وشارك في العديد من المؤتمرات وورش العمل بالداخل والخارج، وخاصة في ألمانيا وسويسرا والنمسا ونيوزيلندا، في مجالات الأدب والميديا والترجمة المتخصصة.

حصل على جائزة أفضل مؤلف وشهادة تكريم من اللجنة العليا لجائزة سوزان مبارك عن روايته "ملك الأشياء" التي ترجمت ونشرت أولا باللغة الألمانية بسويسرا، ثم باللغة العربية في القاهرة.

أسس الجمعية المصرية الأوروبية للثقافة والتعليم والتنمية البشرية التي تهتم بكتب ودراسات وأدب وميديا الأطفال والشباب المسموعة والمرئية تأليفاً وترجمة وإبداعاً فنياً، والممثل الوحيد عن العربية لمشروع www.readme.cc الذي يرعاه الاتحاد الأوروبي.

شارك في تأليف عدد من القواميس العامة والمتخصصة باللغات العربية والإنجليزية والألمانية، وله العديد من المؤلفات والترجمات المنشورة.

يمارس الكتابة والترجمة الأدبية والعمل الثقافي بشكل حر منذ عام 1983. رسام هاو.
عضو نادي القلم المصري.
عضو الجمعية الدولية للجرمانيات (النمسا).